ابن خاتمـــة

شاعر أندلسى من القرن الرابع عشر الميلادى

● كتبت هـــذه الدراســـة القيمة المستشرقة الاسبانية سوليداد خيبرت فليش ، الاستاذة بكلية الآداب بجامعـــة مدريد الآن ، مقدمة لترجمتها اديوان ابن خاتمة الى اللغة الاسبانية ، ونشره قسم اللغة العربية والاسلام فى كليـــة اللغات فى جامعة برشلونه ، برشلونة ١٩٧٥ .

اسمه كاملا : أحمد بن على بن محمد بن على بن خاتمة ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف **بابن خاتمة** ، وما وصلنا من أخبار تتصل بحياته قليل ، على الرغم من شهرته ، وتشهد بها الإشارات الكثيرة التى نجدها عنه فى مؤلفات معاصريه . وفى الحق فإن اسم ابن خاتمة يتردد بكثرة غالبة فى كتاب **الإحاطة لابن الخطيب** ، ومثله فى كتابى المقرى : نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، والشىء نفسه نجده فى كتب التراجم الأخرى فى عصره .

وأوفى ترجمة نملكها له ، هى التى أوردها **ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة**(١) . ومع ذلك ، وعلى الرغم من طولها ظاهراً ، لا نجد فيها معلومات هامة نودها ، ولا تعطينا صورة حقيقية لشخصيته ، فهى مجرد مجموعة من الثناء العاطر ، تطرى أخلاقه ، وفضائله ومؤلفاته ، ضائعة فى غمام صور بلاغية معقدة ، تدعنا غير راضين . ومن المحتمل أن الموقف السياسى الدقيق فى الأيام الأخيرة لغرناطة بنى نصر ، أدى إلى شيوع ذوق أدبى يتميز بالغموض .

يقول **ابن الخطيب** فى بدء الترجمة التى خص بها **ابن خاتمة** :

« من أهل المرية ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن خاتمة .

« هذا الرجل صدر يُشار إليه ، طالب متفنن ، مشارك ، قوى الإدراك ، سديد النظر ، قوى الذهن ، موفور الأدوات ، كثير الاجتهاد ، معين الطبع ، جيد القريحة ، بارع الخط ، ممتع المجالسة ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، حسنة من حسنات الأندلس ، وطبقة فى النظم والنثر ، بعيد المرقى فى درجة الاجتهاد ،

---

(١) طبعة محمد عبد الله عنان ، الطبعة الأولى ، المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٤٧ — ٢٦٧ .

وأخذه بطرق الإحسان ، عقد الشروط ، وكتب عن الولاة ببلده ، وقعد للإقراء ، مشكور السيرة ، حميد الطريقة ، فى ذلك كله » (٢).

ويقول عنه تلميذه ، وجامع مؤلفاته ، وسنتحدث عنه فيما بعد ، أبو جعفر أحمد بن زرقاله :

« فلم يخل كل عصر من شاعر يكون شعراء زمانه عيالاً عليه ، ويحتاج كل منهم إليه ، تنجلى الأيام من نظمه بأنفس من حلا الليالى ، وتثبته فى المعالى. وكان شاعر عصرنا ببلدنا هذا — عصمه الله ! — الذى رفع شمس الأدب وضحاها ، ومهّد أرض الشعر ودحاها ، فتنفس عنه صبح البيان ، وانبجس من سحاب علمه قطره المتّان وتمتمت له قلوب الأدب بحبابها ، وألقت إليه بأفذاذها وثباتها ، فجرى مع الإحسان فى طلق فريد ، وكان له فيه شأو بعيد ، شيخنا الأستاذ المتفنن الجليل ، ما عرف المثيل ، مشيد بنيان الأدب الذى أسس معالمه ، أبو جعفر أحمد بن خاتمة »(٣) .

ويعترف ابن الخطيب بفضله فى بيئة هوت ثقافياً ، ويصرح بذلك عندما يهدى إليه هذين البيتين :

قسماً بالكواكب الزهر والزهـــرُ عاتمـــةْ
إنمـــا الفضـــل ملّـــةْ ختمت يا بن خـــاتمـــةْ(٤)

وفى نهاية السطور التى خصه بها فى كتابه الكتيبة الكامنة ، وهى تنضح وداً وإعجاباً ، أطرى تبحره فى العلم ، وقرنه بسيبويه فى النحو ، وأشاد بمكانته

---

(٢) الاحاطة ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٣) كتاب رائق النحلة فى فائق التورية ، مخطوطة الاسكوريال رقم ٤١٩ ، الورقة رقم ١ أ .

(٤) الاحاطة جـ ١ ص ٢٦٤ . والبيتان من بحر الخفيف .

الأدبية ، وكرر الفكرة السابقة نفسها : « خبا بوفاته الكوكب الوقّاد ، وألقى إلى الضالة المهملة المقاد ، واستولى من بعد اليقظة الرقاد ، واستعجل النقاد »(٥).

وإذا تجاوزنا فقرات الثناء التى أطراه بها الذين ترجموا لحياته (٦) ، ولها ما

---

(٥) طبعة احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ٢٣٩ .

(٦) المصادر التى تضمنت اخبارا عن ابن خاتمة ويمكن الرجوع اليها هى :

- ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة جـ ١ تحقيق محمد عبد الله عنان ، ص ٢٤٧ — ٢٦٧ .
- المقرى ، نفح الطيب ، طبعة الشيخ محيى الدين ، القاهرة ١٩٤٩ ، جـ ٨ ، ص ١٣٩ — ١٤٨ .

وأزهار الرياض ، القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٠ . الجزء الاول ، ص ٢٣ و ٢٥ و ٢٦٥ . والجزء الثانى ، ص ٢٥٢ و ٢٥٤ و ٣٠٢ و ٣٠٥ و ٣٤٠ و ٣٤٦ ، والجزء الثالث ، ص ٢٠٢ .

- ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص ٢٣٩ — ٢٤٥ ، طبعة احسان عباس .
- ابن القاضى ، درة الحجال ، طبعة ا . س . ملوش ، الرباط ١٩٣٤ ، جـ ١ ، ص ٤٠ الترجمة رقم ١١٦ .
- الجزيرى ، غاية النهاية فى طبقات القراء ، القاهرة ، ١٩٣٢ ، جـ ١ ، ص ٧٨ .
- أحمد بابا التمبكتى ، نيل الابتهاج ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٧٢ .
- أحمد عيسى بك ، معجم الاطباء ، (ذيل عيون الأنباء) ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ١١١ — ١١٣ .
- ابن الاحمر ، نثير فرائد الجمان ، طبعة رضوان الداية ، بيروت ، دار الثقافة ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، الترجمة رقم ٢٠ .
- خير الدين الزركلى : قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء من العرب ، جـ ١ ص ١٨١ .
- بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، جـ ٢ ص ٢٥٨ ، والملحق جـ ٢ ص ٣٢٩ .
- جيانجوس : تاريخ الممالك الاسلامية فى اسبانيا ، لندن ١٨٤٠ — ١٨٤٣ ، ص ٣٥٨ .
- بونس بيوجيس : دراسة حياة وأعمال المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، مدريد ١٨٩٨ ، ص ٣٣١ .
- م . ف . انتونيا ، ابن خاتمة المرى ، ورسالته عن الطاعون فى مجلة « الدين والثقافة » مدريد ، أكتوبر ١٩٢٨ .
- ج . س . كولان ، بعض شعراء الغرب من العرب فى القرن الرابع عشر الميلادى ، هيسبريس ، المجلد ١٢ ، ١٩٣١ ، ص ١ — ٣٢ . والمجلد ١٢ ، ١٩٣١ ، ص ٢٤١ .
- ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوطة باريس ، رقم ٢٣٢٧ ، الورقة ٢١٠ .

وذكر ناشر كتاب ابن الاحمر مصدرين لم أستطع الرجوع اليهما ، وهما : هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادى ، جـ ١ ص ١١٣ ، وشجرة النور الزكية ، لمحمد محمود مخلوف ، القاهرة ص ٢٢٩ .

يبررها تماماً حين ندرس مستوى مؤلفاته ، لا نجد أخباراً ، ولا معلومات محددة تصور لنا ما كان عليه فى دنياه ، ولم يذكر لنا أى واحد منهم تاريخ ميلاده . ولكن بروكلمان ، وجيانجوس ، ودرنبورج فى فهرسه ، حددوه بأنه عام ٧٢٤هـ ١٣٢٣ م ، على حين أن بونس بيوجيس حدده بعام ٧٣٤هـ-١٣٣٣ ، وكلاهما خاطىء دون أدنى شك ، ذلك أن الديوان يحمل تاريخ ٧٣٨ هـ = ١٣٣٧ م ، وليس ممكناً أن مؤلفه أنشده وله من العمر أربعة أعوام ، ولا حتى أربعة عشر عاما . وجاء الخطأ على التأكيد من الخلط بين تاريخ ابن خاتمة شاعرنا وبين تاريخ أخ له أصغر منه ، يُدعى **محمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى ، أبو عبد الله** ، وهو الشخص الوحيد من أسرة ابن خاتمة الذى نعرف بعض الأخبار عنه (٧) . ويقول **ابن الخطيب** عن هذا الكاتب والشاعر المربى الأخير إنه «تأدب بأخيه وتهذب ، وأراه فى النظم المذهب ، وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقتفى واقتدى ، وراح فى الحلبة واغتدى ، حتى نبل وشدى ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأما خطه فقيد الأبصار ، وطرفة من طرف الأمصار ، واعتبط يانع الشبيبة ، مخضر الكتيبة » . وهذا ما يفسر لنا الخلط الذى وقع فى تاريخى الأخوين . لقد توفى **محمد** ضحية وباء الطاعون عام ٧٥٠هـ-١٣٥٠م ، فإذا كان تاريخ مولده عام ٧٢٤هـ فذلك يعنى أنه فارق الحياة وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، أو « اعتبط يانع الشبيبة » على حد تعبير ابن الخطيب . وقد أورد **ابن الخطيب** ، ومثله **ابن القاضى** ، بعضاً من قصائده ، تبلغ ثلاثاً

---

(٧) يمكن الرجوع الى ترجمته فى :

- درة الحجال ، ج ١ ص ١٩٤ ، الترجمة رقم ٥١٨ .
- نفح الطيب ، ج ٨ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .
- ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، حيدر اباد ، ١٩٣١ ، ج ١ ص ٢٠١ ، الترجمة رقم ٤٠٩٥ . وفى هذه الترجمة لا يشير الى لفظ ابن خاتمة ، وانما جاءت تحت اسم محمد ابن محمد بن على بن حامد الانصارى ، أبو عبد الله المربى ، ويقول انه تربى على يد أخيه أحمد ، واستطعت فى سهولة أن أعرف شخصيته ، نخلا عن أن الاشعار المنسوبة اليه هنا هى نفسها الموجودة فى نفح الطيب ، وفى الاحاطة ، مخطوطة الاسكوريال الورقة ٥٤ ، ومخطوطة باريس ، الورقة ٤٧ ب و ٤٨ أ .

عند الأول ، وواحدة عند الثانى ، وكلاهما يصرح بأنه دفن فى ألمرية ، فى روضة بنى خاتمة ، فى روض الحوض .

وفيما يتصل بموته لا يوجد أيضاً تاريخ مؤكد ، فابن الخطيب فى الإحاطة ، آخر الترجمة التى خصه بها ، وكتبها له ولما يزل حيا وطبقاً لما يصرح به شخصياً ، يجعله يقع فى ١٢ من شعبان ٧٧٠هـ—٢٢ من مارس ١٣٦٩ م .

وأحمد بابا التمبكتى فى « نيل الابتهاج » ، ومثله أحمد عيسى بك فى معجم الأطباء ، يقولان اعتماداً على الحضرمى كمصدرهما ، إنه توفى فى ٧ من شعبان ٧٧٠هـ—١٧ من مارس ١٣٦٩م ، وهو فى الستين من عمره تقريباً .

كيف نوفق بين هذا التاريخ وبين ما يقوله ابن الخطيب ؟ . ومن جانب آخر ، فإن الجزيرى فى كتابه غاية النهاية يوقعنا فى اضطراب كبير عندما يصرح فى ترجمته ، رقم ٣٩٥ ، وطبقاً لمعلومات حصل عليها من تلميذ لابن خاتمة نفسه ، يدعى : أبا عبد الله محمد بن ميمون (٨) ، أنه توفى فى عام ٧٦٨هـ ، أو ٧٦٩هـ ، وله من العمر سبعون عاماً تقريباً . وهذا التاريخ يبدو غير ممكن إذا أخذنا فى الحسبان قول ابن الخطيب ، أنه كان لا يزال حياً فى ١٢ من شعبان عام ٧٧٠هـ . وفيما يبدو فإن رواية الحضرمى أكثر احتمالا ، ولو أن اليوم الذى حدده وهو السابع من شعبان لا يبدو محتملا . وفيما يتصل بعمره ، يرى بعضهم أنه عاش ستين عاماً ، على حين يرتفع بها آخرون إلى سبعين ، ولا يمكن الجزم بأى منهما . ومن تاريخ جمع الديوان ، وهو ٧٣٨هـ—١٣٣٧م ، يمكن القول بأن الأكثر احتمالا أن ابن خاتمة رحل عن الحياة وهو فى حوالى السبعين عاماً من عمره .

---

(٨) عن هذا الاديب والمقرى والمحدث الغرناطى ، والذى توفى فى اليمن عام ٧٩٠ هـ أو ٧٩٣ هـ ، بعد أن رحل وجال فى تونس ودمشق ومصر ، انظر : غاية النهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

ويتحدث عنه ابن الخطيب فى كتابه الكتيبة الكامنة ، وألفه بعد كتاب الإحاطة ، وقد فارق الحياة ، وخصه بأبيات عرضنا لها فيما سبق(٩) .

كما رأينا ، فى ضوء الأخبار التى أمدنا بها من ترجموا له ، وبالنظر إلى الموضوعات التى عالجها فى مؤلفاته ، كان ابن خاتمة شاعراً وناثراً ومؤرخاً ، ورياضياً وطبيباً ، وكاتباً ومقرئاً ، وطبقاً لما أورده أحمد عيسى بك ، وأحمد بابا التمبكتى ، كان له فى المدينة مجلس يتوافد عليه عامة الناس ، وكان جميل الوجه ، سخياً مع أصدقائه ، لطيفاً فى لقائه بهم .

● شيوخه :

أورد لنا ابن الخطيب أو فى قائمة بشيوخه ، وهم :

أبو الحسن ، على بن محمد بن أبى العيش ، الأنصارى ، المرى ، المتوفى عام ٧٤٠هـ—١٣٣٩م ، وهو من مرسية ، وأقام فى المرية ، عندما سقطت مدينته فى يد النصارى . وتولى قضاء المرية ، وكان يشغله قبله أبو جعفر بن فركون القيسى ، من جلة العلماء ، وله مشاركة فى علوم الفلسفة(١٠) .

أبو إسحاق ، إبراهيم بن محمد بن على بن محمد بن عبد الرحمن ، التنوخى ، ويعرف بابن أبى العاصى ، المتوفى ٧٢٦هـ—١٣٢٥م ، أصلا من جزيرة طريف ، ومن كبار القوم فيها ، رحل عنها عند استيلاء النصارى عليها فى عام ٦٧١هـ—١٢٧٢م ، وتحول إلى مدينة سبتة ، وورد الأندلس فاستوطن غرناطة ، وكتب فى الجملة عن سلطانها ، وتولى الإمامة والخطابة فى مسجدها الجامع ، عام ٧١٦هـ—١٣١٥م ، وطبقاً لما أورده ابن القاضى بدأ يؤلف كتاباً عن الأسرة النصرية ، ولكنه توقف عن محاولته . وكان تقياً ، زاهداً فى الدنيا ، مواسياً الفقراء ، « يتزاحمون عليه

---

(٩) ص ٢٣٩ ، الطبعة التى أشرنا اليها فيما سبق .

(١٠) لمعرفة المزيد عن ابن ابى العيش انظر .

● درة الحجال ، ج ٢ ، الترجمة رقم ١٢٢٤ .

فى طريقه ، ويتمسحون به ، ويسعون بين يديه ومن خلفه ، ويتزاحم مساكينهم على بابه ، قد عودهم طلاقة وجهه ، ومواساته لهم بقوته ، يفرقه عليهم متى وجدوه ، وربما أعجزوه قبل استواء خبزه ، فيفرقه عليهم عجيناً . وفى عام ٧٢١هـ—١٣٢٠م ، انتقل إلى المرية ، وكان إلى هذا شاعراً ، وأغلب شعره فى الحكمة (١١).

محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد بن ابراهيم بن حسن * القيسى ، الوادى آشى ، المتوفى عام ٧٤٩هـ—١٣٤٨م ، تونسى المولد، وحج إلى مكة ، وجال فى البلاد المشرقية ، « ولقى أمة من العلماء والمحدثين ، وأصبح بهم شيخ وحده ، انفساح رواية وعلو إسناد » . وكان مقرئاً متمكناً ، أديباً متميزاً ، ورجلا تقياً، وحفظ لنا عنه ابن القاضى فى كتابه **درة الحجال** بيتاً من الشعر ، كان ابن عساكر الدمشقى يردده، عندما ودعه وابن خاتمة فى ألمرية، وكان الوداع ، طبقاً لابن خاتمة ، فى رابطة بالمرية تسمى « رابطة الوداع » (١٢).

أبو القاسم ، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد القيسى ، ويعرف **بابن شعيب** ، من أسرة عريقةفى المرية، وتولى الخطابة فى المسجد الجامع فى

---

(١١) عن ابن أبى العباس التنوخى انظر :

- درة الحجال ، جـ ١ ، الترجمة رقم ٢٣٢ .
- الاحاطة فى أخبار غرناطة ، طبعة عبد الله عنان ، جـ ١ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٥ .
- غاية النهاية ، جـ ١ ، ص ٢٤ ، الترجمة رقم ١٠٠ .
- الكتيبه الكامنة ، ص ٣٢ .

* فى الجزء الرابع من الاحاطة ، طبعة عبد الله عنان ، ص ١٦٢ ، حسان بدل حسن، « المترجم »

(١٢) عن ابن جابر ، وهو مؤلف كتاب معروف عن رحلته ، انظر :

- بونس بيوجيبر ، دراسة عن حياة ومؤلفات الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين ، الترجمة رقم ٢٧٩ ● درة الحجال ، جـ ١ ، الترجمة رقم ٥٢٧ ● نفح الطيب ، طبعة محيى الدين جـ ٨ ، ص ١٢٥ ● جيانجوس ، تاريخ المسلمين فى الأندلس ، وهو الترجمة الانجليزية للقسم الأول من نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٥٣٩ ● غاية النهـاية ، جـ ١ ، ص ١٠٦
- الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٣٦٥ .

ويقول العسقلانى انه قام برحلتين ، وطبقا لابن الخطيب مات ضحية الطاعون ، ويقول آخرون انه مات شهيدا .

المرية ، وبها شغل منصب القضاء، وقبل ذلك كله كان تقياً وزاهداً ، لم يفارق وطنه أبداً ، وكان مستقيم السلوك دائماً .(١٣)

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ، أبو جعفر ، ويعرف **بابن فركون** ، توفى عام ٧٢٩هـ—١٣٢٨م ، وهو من المرية ، ثم انتقل إلى غرناطة ، وهو من العائلات الشريفة ، ولذلك استحق لقب « القرشى » . وشغل منصب القاضى فى رندة ، ومالقة ، والمرية ، وأصبح خطيب المسجد الجامع فى غرناطة ، وظل فى منصبه هذا إلى أن عزل عنه بسبب الأحداث التى أدت إلى خلع نصر ملك غرناطة عن العرش ، وتولية حفيده إسماعيل الأول (٧١٣هـ—١٣١٤ م) مكانه ، وكان وفاؤه للسلطان المخلوع سبباً فى إبعاده عن المنصب ، ومنذ هذه اللحظة طواه النسيان . وقد عرف بالفقه ، وكان شاعراً مرتجلا ، ومحباً للجمل ذات الكناية ، ويستخدم التورية عندما يتحدث إلى أصدقائه .(١٤)

محمد بن محمد **بن سهل** بن مالك الأزدى ، أبو القاسم ، ويعرف بالوزير ، توفى عام ٧٣٠هـ—١٣٢٩م ، ويعرف بيتهم ببنى مالك الوزير ، وهو من غرناطة أصلا ، ثم رحل إلى المشرق ، وتوفى إثر عودته من الحج ، وكان أديباً ، تقياً وزاهداً ، « لا يقبل من أحد شيئاً ويعطى كل شىء » .(١٥)

أبو البركات ، ابن الحاج **البلفيقى** ، توفى عام ٧٧٤هـ—١٣٧٢م ، وكان

---

(١٣) عن ابن شعيب انظر :
● درة الحجال ، ج ٢ ، الترجمة رقم ٩٧٥ ، والجزء ١ الترجمة رقم ٤٩٤ ، وهى خاصة بوالده .

(١٤) عن ابن فركون انظر :
● الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٥٩ — ١٦٣ . ● النباهى ، المراقبة العليا ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .
● درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة ٤٨ . ● نيل الابتهاج ، ص ٦٤ — ٦٥ .
● اللمحة البدرية ، ص ٥٠ — ٥٨ . ● الكتيبة الكامنة ، ص ١٠١ .

(١٥) عن ابن سهل انظر :
● درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة ٥٢٥ ● غاية النهاية ، ج ١ ص ٢٤٠ .
● الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ، الترجمة ٤٨٣ .

قاضياً شهيراً، ومؤرخاً وشاعراً، وكان وثيق الصلة بابن خاتمة، وارتبطت حياتهما معا، ودرست حياته على نحو مفصل فى مقال لى نشر بمجلة الأندلس Al-Andalus المجلد الثامن والعشرين، عام ١٩٦٣، الصفحات من ٣٨١ إلى ٤٢٤.

ويذكر ابن القاضى أيضاً، محمد بن محمد بن عبد الواحد، أبو القاسم البلوى، المتوفى عام ٧٤٧هـ—١٣٤٦م، كأستاذ لابن خاتمة، وكان قاضياً لمدينة بيرة Vera، ثم المرية، ورحل حاجاً إلى مكة (١٦).

وأخيراً، يذكر ابن القاضى نفسه أستاذاً آخر لابن خاتمة، هو: أبو عثمان، سعد بن أحمد بن ليون التجيبى (١٧). وقد خصه المقّرى فى كتابه **نفح الطيب** بصفحات طويلة نقلها نصاً عن ابن الخطيب، وأورد له عدداً كبيراً من الأبيات والمقطوعات، فى الحكمة، وخطرات فلسفية، وتأملات فى حوادث زمانه ومصائبه، نقلها من مؤلفاته التى تتصل بهذه الموضوعات، وعناوينها:

١ — كمال الحافظ، وجمال اللافظ، فى الحكم والوصايا والمواعظ.

٢ — نصائح الأحباب، وصحائح الآداب، وهو موجز للكتاب السابق.

٣ — أنداء الديم فى الوصايا والمواعظ والحكم.

هذه الأشعار، وترجم بعضها إلى الإسبانية من قريب إميليو غرسية غومث (الأندلس، المجلد ٢٧، ١٩٧٢، ص ١—٧٥)، تعكس شبهاً قوياً فيما يتصل بموضوعات وأسلوب القسم الرابع من ديوان ابن خاتمة. ومن جانب اخر، نقرأ

---

(١٦) درة الحجال، الترجمة رقم ٥١٥.

(١٧) عن ابن ليون انظر:

● نفح الطيب، ج ٨، ٥٨ — ١١٤ ● درة الحجال، ج ١، الترجمة ٣٥٢.

وقد ألف ابن ليون كتابا عن الفلاحة، ترجمته الآنسة خواكينا ايجوارس الى الاسبانية وكان موضوعها للدكتوراة، وابن ليون شخصية هامة بين أدباء مملكة غرناطة. وانظر عنه أيضا:

● الكتيبة الكامنة، ص ٨٦ — ٨٧ ● نيل الابتهاج، ص ١٢٣ — ١٢٤

● ترجمته فى مقال غرسية غومث المشار اليه، فى مجلة الأندلس، المجلد ٣٧، عام ١٩٧٢،

فى السطور الأخيرة من الترجمة التى أوقفها المقرى على ابن ليون ، أنه : أوقف مدائحه على الرسول فحسب . وهى نفس حال ابن خاتمة فى القسم الأول من ديوانه ، وعنوانه « فى المدح والثناء » ، وهو يضم قصائد فى ذكر الله وشكره ، والثناء على نبيه فحسب . وكلا الأديبين من المرية ، وعاشا فى عصر واحد ، وينهلان فى أسلوبهما من نفس المعين ، ويمكن أن نضعهما بين مجموعة من الشعراء والكتاب أعطوا هذه المرحلة الأخيرة من حياة الأدب الإسبانى طابعه الأدبى المميز .

وكان لابن خاتمة جلساء وصداقات عديدة بين الشخصيات العاملة فى بلاط غرناطة ، أو على صلة به ، وفضلا عن ابن الخطيب ، وأشرنا إلى شواهد صداقته ومظاهرها ، وعن أبى البركات ابن الحاج ، وعلى الترجمة له أوقفت مقالا كاملا ، وعنه أخذت الجانب الأكبر من الروايات المتعلقة بهما ، فى لحظات كثيرة من حياتيهما ، وفضلا عن هذين نذكر :

أبا عبد الله محمد بن جُزَى الكلبى (١٨) ، من أشهر أبناء أسرة بنى جُزَى العريقة ، فهو ابن أبى القاسم محمد ، الشاعر الذى وقف قصائده على مدح السلطان أبى الحجاج يوسف ، وقد استشهد الوالد فى الوقيعة الكبرى بطريف ، والتى تعرف فى المصادر الإسبانية باسم معركة « سلادو » ، عام ٧٤١هـ - ١٣٤٠ م . (١٩)

---

(١٨) انظر ترجمته فى :

● نفح الطيب ، ج ٨ ، ص ٤٠ — ٥٤ ● ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ١٨٩ — ٢٠٤
● درة الحجال ، الترجمة رقم ٧١٥ ● الكتيبة الكامنة ، ص ٢٢٣ — ٢٢٨
● نثير فرائد الجمان ، ص ٢٩٢ — ٣٠٦ ● نيل الابتهاج ، ص ١٠٥
● بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ص ٢٣٣ ● برنس بيوجيس ، دراسة ، الترجمة رقم ٢٨٤ .

(١٩) درة الحجال ، الترجمة ٥٥٣ ● نفح الطيب ، ج ٨ ص ٢٨
● ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ١٨٤ ● الكتيبة الكامنة ، ص ٤٦ — ٤٨
● الديباج ، ص ٢٩٥ ● نيل الابتهاج ، ص ٢٣٥
● الاحاطة ، مخطوطة باريس ، الورقة ٦١ ب و ٦٢ أ .

أبو عبد الله محمد بن جُزَى ، غرناطى ، وشاعر البلاط فى غرناطة أولا ، ثم شاعر السلطان المرينى أبى عنان فى فاس من بعد ، وقد توفى فى هذه المدينة عام ٧٥٨هـ—١٣٥٧م ، وكان هو الذى حرر **رحلة ابن بطوطة**، سنة ٧٥٦ هـ= ١٣٥٦ م ، أى قبل عامين من وفاته . وليس هنا المكان المناسب لكى نفصل القول فى محمد بن جزى وأخباره، وهو شخصية بالغة الأهمية ، وقد لعب مع أخويه عبد الله (٢٠) وأحمد (٢١) دوراً باهراً فى الحياة الأدبية فى مملكة غرناطة .

وقد أشار المقرى (٢٢) إلى الصداقة التى ربطته مع ابن خاتمة، وأورد لنا رسالة وجهها هذا إلى ابن جزى ، تغلب عليها الصناعة اللفظية، وتتزاحم فيها الجمل ذات التورية ، وتستخدم أسلوباً طالما استخدمه الأدباء العرب فى كل العصور ، ولكنه وجد بين أدباء هذا العصر إقبالا حميما . ويقول المقرى ، إنه رد بها على قصيدة زائية كان ابن جزى قد بعث بها إليه ، رداً على قصيدة تلقاها منه ، جاءت فى قافية الراء ، وقد حرص ابن جزى على أن تجىء قصيدته خالية من حرف الراء تماماً ، لأنه لم يكن يستطيع أن ينطقها صحيحة ، وكان يبدلها غيناً. وثمة قصيدة أخرى توجه بها ابن جُزى إلى السلطان أبى الحجاج يوسف(٢٣) ، وتؤكد حكاية حرف الراء هذه ، لأن الشاعر استطاع أن يتجنب فيها ، وجاءت فى أربعة وثلاثين بيتاً ، استخدام أية كلمة تجىء الراء بين حروفها .

ومن جانب آخر ، فإن **ابن الأحمر** (٢٤)، وخص ابن جُزَى بترجمة مطولة ،

---

(٢٠) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ٥٤ ● الكتيبة الكامنة ، ص ٩٦ — ٩٩ ● ذيل الابتهاج ، ص ١٢٩ .

(٢١) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ١٣١ ● ازهار الرياض ، جـ ٢ ص ١٨٧ ● درة الحجال ، الترجمة ٨ ● الاحاطة ، جـ ١ ص ١٦٣ — ١٦٨ ● الكتيبة الكامنة ، ص ١٣٨ — ١٤٣ .

(٢٢) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ١٤٤ .

(٢٣) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢٤) نثير فرائد الجمان ، ص ٣٠٣ — ٣٠٦ .

أورد لنا رسالة كتبها هذا إلى لسان الدين بن الخطيب، وليس فيها كلمة واحدة تجيء السين بين حروفها . فالأمر كما نرى، ليس مجرد إبعاد حرف معين لا يستطيع الكاتب نطقه صحيحاً ، وإنما استجابة لذوق خاص، مغرم بمثل هذه الغرائب، والتي نجد لها شبيهاً أيضاً بين كثير من الأدباء الإسبان . ولنتذكر مثلا أن كاستيو سلورثانو Castillo Solorzano ألغى حرف Y في روايته «مزرعة لورا La quinta de Laura » ، وأن نبرّيت ريبيرا Novarrete Ribera لم يستخدم حرف a في روايته الحسان الثلاثة «Los tres her moses »، ومثله صنع ثريتا دي أرو Zurita de Haro في روايته « فضائل تصنع الجوائز Méritos disponen premios . وكان روبين داريو Rubén Dario مولعاً للغاية بتلاعب الألفاظ هذا ، وأن خردييل بونثيلا Jardiel Poncela برّر حب هذا الأسلوب المتكلف قائلا : « كما يحدث في التطريز على الخيش ، حين تنزع بعض الزهور الحمراء أو الزرقاء ، وتصنع مكانها أخرى » ، وعن هذا العمل المسلي يقول كاتبنا نفسه : « حين تكتب قصة عادية ، ثم تحولها إلى قصة أخرى لاتضم حروف aes أو ies تكون كمن يستجيب لشعار التشجيع عند فناني السيرك : مزيداً من الصعوبة ! » .

هذا الأسلوب المتكلف ، كان اللعبة المفضلة ، فيما يبدو ، عند الأدباء الأندلسيين في القرن الرابع عشر الميلادي ، ولم يستطع ابن خاتمة أن ينجو من تأثير هذه البيئة ، وفي الفصل الثالث من ديوانه يمكن أن نجد شواهد عديدة على هذا الأسلوب الأدبي (٢٤) .

(٢٤م) مثل هذه الغرائب الأدبية ليست وقفا على عصور الانحطاط ، والشاعر القرطبي العظيم ابن شهيد ، المتوفى ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م ، نظم أربعين بيتا على البديهة ، ليس فيها حرف يعجم أولها . (الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ٢٥٩ ، الترجمة رقم ٦١٣) .

ونذكر بين أصدقاء ابن خاتمة أيضاً : أبو القاسم عبد الله بن رضوان ، المتوفى ٧٨٠هـ = ١٣٧٨ م ، وهو عالم مالقي ، وشخصيته متميزة في بلاط بني مرين ، و إليه أهدى ابن خاتمة ديوانه (٢٥) .

أما فيما يتصل بتلاميذه ، فلا نعرف منهم غير أسماء ثلاثة فحسب : أخو محمد ، وأشرنا إليه من قبل ، وأبو عبد الله محمد بن ميمون (٢٦) ، وأبو جعفر أحمد بن زرقالة (٢٧) .

ولم أستطع أن أجد أخباراً تتصل بسلفه ، فليس لوالده ترجمة ، ولا لأجداده ، وقد استرعى انتباهي إشارة ربما تتصل بأسرته ، في مقال نشره خوسيه ماريا كوسيو Jose M. Cassio في مجلة الأندلس ، المجلد السابع ، ١٩٤٢ ، الصفحات ٥٠ — ١١٢ (٢٨) ، وعنوانه : « الأسرى المسلمون ، في القرن الثالث عشر » ، فقد وجدت في هذا المقال اسم من يدعى ابن خاتمة من المرية .

تقول المخطوطة ، عندما بينت كيف حصل مسلم من ألمرية على كل من بنيتو Benito و دومينجو Domingo :

« قبل أعياد الميلاد بثمانية أيام ، عام ١٣٢١ ، خرج من مرسية ، هو

---

(٢٥) عن ابن رضوان انظر فيما بعد ، ص ١٣٢ الهامش رقم ٤ من هذا الكتاب .

(٢٦) انظر ص ١٠٧ الهامش رقم ٨ من هذا الكتاب .

(٢٧) لم أستطع تحديد هوية تلميذ ابن خاتمة هذا ، وهو الذي جمع محفوظات نوريانه في كتاب وصلنا بعنوان : « كتاب رائق التحفية ، في فائق التورية » . وعن الشخصيات التي تحمل اسم ابن زرقالة ، انظر مقالي : مجموعة من التوريات لأبي جعفر أحمد بن خاتمة في : « دراسات مستشرقية ، مهداة الى ذكرى ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٥٤٦ » .

(٢٨) وهو يدرس كتاب ف . سبا ستيان دي برجارة F. Sebastian de Vergara وكتبه في مدريد عام ١٧٣٦ م ، وعنوانه :

Miraculos romanceados de Como sacô Sto. Domingo Los cativos de la Cativdad et fizolos escribir Pero Martin monje del monasterio, P. 2.

وميجيل ، ذهباً للصيد فى البحر ، ومعهما حصانان، وهما ذاهبان إلى وادى رولاق Rolac التقيا مع يوسف مقدم بيرة al mocadén de Vera ، وعرض لهم فرسان ورجالة من المسلمين ، فأسروا هذين المسيحيين ، وحملوهما إلى بيرة ، و باعوا بنيتو بأربعة دوبل doble * وربع ، وميجيل بأربعة دوبل ، وحملوهما إلى المرية ، و باعوا بنيتو إلى مسلم آخر ، يسمى ابن خاتمة بأربعة دوبل ونصف ، وهذا باعه إلى « أبو الحزم بخمسة دوبل .... » .

وفى ضوء تاريخ الوثيقة من الممكن أن نقول إننا بصدد والد ابن خاتمة صاحبنا .

● البيئة السياسية والثقافية :

كما رأينا جرت حياة ابن خاتمة بين أعوام ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ م و ٧٧٠هـ = ١٣٦٩ م ، أو إن شئت شغلت قمة القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى. وكانت الأحداث السياسية فى هذه الفترة من أشد أحداث المملكة النصرية اضطراباً ، وكان المناخ فى غرناطة شديد الشبه جداً بما كان عليه فى قشتالة نفسها (٢٩) .

وإذا ألقينا نظرة عجلة على تاريخ هذه الفترة وجدنا فيها : مملكة محمد الثالث وسياسته الاستعمارية ، وتدخل المرينيين ، ثم حكومة نصر (١٣٠٩ — ١٣١٤ م) ، واحتلاله مدينة سبتة ، وحصار فرناندو الرابع فى أيامه مدينة الجزيرة الخضراء ، واستيلاءه على جبل طارق ، وفى هذه الأيام أيضاً حاصر خاتمة

---

* الدوبل عملية ذهبية كانت سائدة خلال مملكة غرناطة ، في الجانبين الاسلامى والمسيحى من الاندلس ، وتساوى الجنيه الذهبى في عصرنا تقريبا .

(المترجم)

(٢٩) للمزيد عن مملكة غرناطة أنظر الدراسة الممتازة التى قامت بها راشيل أريبيه : اسبانيا الاسلامية في عصر بنى نصر (١٢٣٢ — ١٤٩٢) ، باريس ١٩٧٣ . ولدراسة عصر محمد الخامس أنظر : مملكة غرناطة في عصر محمد الخامس ، لاحمد مختار العبادى ، مدريد ١٩٧٣ .

الثانى مدينة ألمرية ، وهو حادث لابد أن شاعرنا عرفه ولمايزل صبياً .وحكومة **إسماعيل الأول** (١٣١٤ — ١٣٢٥) ، والتدخل فى سياسة الأميرين خوان وبدور الوصى على **ألفونسو الحادى عشر** . وعصر **محمد الرابع** (١٣٢٥— ١٣٣٣ م) ، والذى اغتيل بعد أن احتلت قوات ألفونسو الحادى عشر جبل طارق، والأحداث الهامة التى وقعت فى سنوات **أبى الحجاج يوسف** (١٣٣٣— **١٣٥٤ م**) ، **ومحمد الخامس** (١٣٥٤ —١٣٩١ م) ، وأدرك **ابن خاتمة** سنوات ملكه فى قمة نضجها . إنه العصر الذى حدثت فيه **وقيعة طريف** ، أو معركة سلادو كما تسميها المصادر الإسبانية ، وحصار جبل طارق ، وشهد موت **ألفونسو الحادى عشر** ضحية وباء الطاعون الذى وصفه لنا ابن خاتمة فى رسالة من أشهر مؤلفاته . وشهد ألواناً من النضال ومن الاضطرابات ومن الرذائل فاض بها عصر **محمد الخامس** ، وقد عزله عن العرش **أخواه إسماعيل ومحمد البرميخو** (١٣٥٩ — ١٣٦٢ م) ، ونفى محمد الخامس إلى المغرب ، ثم عودته مع وزيره لسان الدين ابن الخطيب . كان عصر كفاح ومناخاً فياضاً بالانفعال . وفيه ارتفعت الحمراء، وبنى بدور القاسى قصره Al cázar فى إشبيلية ، وبدأ الأدب الأندلسى على الرغم من توهج أشكاله اللامعة ، المطرزة بألوان البلاغة الفخيمة ، يأخذ طريقه نحوالانحدار والسقوط فى وضوح ، وولد الأدب القشتالى ، وكان متأثراً بالأدب العربى على نحو قوى عميق ، ولدينا من أعلامه : كاهن هيتا ، وبيرولوبث دى أيالة ، ودون خوان منويل ، وسام توب دى كاريون . *

---

* لمعرفة كاهن هيتا انظر : د . الطاهر احمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، ص ٣٤٢ وما بعدها ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ .

بيرو (او بدرو) لوبث دى ايالة (١٣٣٢ — ١٤٠٧ م) رجل دوله ، واديب اسبانى ، وله كتاب « تاريخ قصر » Rimado de Palacio

خوان منويل (١٢٨٢ — ١٣٤٨ م) ، حفيد الملك الفو نسو العاشر ، الملقب بالعالم ، وكان سياسيا وكاتبا ، ومن اشهر مؤلفاته « الكوندى لوكارنو » ، وهو مجموعة من الحكايات ،

أين نضع **ابن خاتمة** فى هذا المناخ السياسى والثقافى ؟ نحن نعرف عن طريق ابن الخطيب أنه كان يتردد على البلاط الغرناطى ، وكان ينظر إليه فى عاصمة بنى نصر على أنه من خيرة الأدباء الذين ازدهروا فى الأندلس ، ومع ذلك لانراه أبداً يأخذ بأدنى حظ من السياسة العكرة فى تلك الأيام ، وليس لدينا أية معلومات تجعلنا نشك فى أن طموحاً ما كان يحركه أو وراء خطاه . ولكن ذلك لا يعنى أبداً أنه كان يعيش على هامش الأحداث . ولقد احتفظ لنا كل من **ابن الخطيب والمقرى** (٢٩) بالرسائل التى كان يتبادلها **ابن خاتمة** والأول منهما . وهذه الرسائل يمكن أن تعد نموذجاً للبلاغة المتكلفة التى كان يستخدمها الأدباء على أيامه ، فى هذا العصر ، وكان ابن خاتمة أحد أعلامه ، وفيها تجىء الأفكار والمعانى ضائعة فى طوفان من ثراء اللغة ، وفيضان الصور ، و جموح الخيال .

ونعرف من الذين ترجموا لحياته أنه تولى منصب **مقرئ** فى **جامع المرية** ، وأنه كان كاتباً ، ويبدو أنه لم يشغل هذا المنصب الأخير لزمن طويل ، وأورد لنا المقرى أبياتاً تتصل باعتزاله له ، يقول : « ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة ، وطلب إليه أن يعود فأبى وأنشد :

تقضّى فى الكتابة لى زمانٌ ... كشان العبد ينتظر الكتابهْ
فمن الله من عتقى ممـا لا ... يطيقُ الشكر أن عملا كتابه
وقالوا : هل تعود فقلتُ : كلاّ ... وهل حـرٌ يعود إلى الكتابه(٣١) .

متأثرة بالأدب العربى فى جانب منها ، وترجمة حرفية لنصوص عربية فى جانب آخر .
سام توب ، يهودى ، كان ربانا ليهـود كاريون ، وعاش فى حماية بـدرو الاول ملك نشتالة ، وألف : « أمثال خلقية ، أو نصائح ومواعظ للملك بدرو » ، وهى فى جملتها مقتبسة من العربية .

(المترجم)

(٣٠) الاحاطة ، ج ١ ، ص ٢٤٩ — ٢٥٢ ، ٢٦١ — ٢٦٨ . ونفح الطيب ، ج ٨ ، ص ١٤٥ — ١٤٨ .

(٣١) الأبيات من بحر الوافر . ومثل هذه الأبيات نجدها لاستاذه أبى البركات البلفيقى ، وترجمتها الى الاسبانية ، أنظر : مجلة الاندلس ، المجلد ٢٨ ، عام ١٩٦٣ ، ص ٣٩٧ .

كما يمكن أن نرى ، يبدو أن **ابن خاتمة** لم تكن لديه أية رغبة فى أن ينضم أو يشغل أية وظيفة ، وتعكس قصائده النبرة نفسها ، فلا يطل من بينها ملق ولا مديح أبداً ، والهدف الجوهرى منهما دائماً الحصول على العطاء ، أو الوصول إلى مكان مرموق .

والأخبار القليلة المتصلة بأحداث حياته ، تجيء ملفوفة فى فيض جارف وقطيع من الصور البلاغية المعقدة .

وعندما نمضى مع **ابن الخطيب** بعد الحديث عن شيوخ **ابن خاتمة** ، نجد بعض الأشعار ورسالة كتبها هذا ، بعد زيارة حاشية السلطان للمرية ، وكان ابن الخطيب يرافق السلطان ، وعبّر شاعر المرية عن بهجته بلقائه(٣٢) . وتحمل الرسالة تاريخ ١٠ من ربيع الأول ٧٤٨هـ = ٢٠ من يونية ١٣٤٧ م ، وأورد ابن الخطيب بعدها طائفة من أشعار ابن خاتمة ، تبلغ فى مجموعها إحدى عشرة بين قصيدة ومقطوعة ، وبعضها لا يوجد فى الديوان .

ويشير **ابن الخطيب** بعدها كيف أن **ابن خاتمة** عقب انصرافه من **غرناطة** ، فى بعض قدماته عليها ، حضر مجلساً فى دار ابن الخطيب ، وكتب إليه ببعض الأشعار التى نظمها بعض من حضر المجلس . ولم يقل من هو هذا الشخص ، وقد يكون ابن خاتمة نفسه ، وفى هذه الأبيات يصف قصر ابن الخطيب فى « **عين الدمع** » من غرناطة (٣٣) . وفى المكان نفسه ، ومازلنا

وهذه الأبيات تتضمن توريةً ، ويمكن أن نفهم على معنيين الكتابة ، وهى الوظيفة الادارية المرموقة ، أو الانفاق على أن يسترد حريته من كان رفيقا مقابل شيء . ومن ثم فان البيت الأخير يمكن أن يترجم في الاسبانية على ضربين ، يأخذ في كل مرة منهما أحد المعنيين دون الآخر .

(٣٢) الاحاطة جـ ١ ص ٢٦٠ ، نفح الطيب ؛ جـ ٨ ص ١٤٧ .

(٣٣) عن رحلة ابن الخطيب الى المرية رفقة السلطان ابى الحجاج يوسف ، الذى خرج من غرناطة في ١٧ من محرم عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٨ م ، انظر : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس ، نشرها أحمد مختار العبادى ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٧ — ٣٥ .

مع رواية لسان الدين بن الخطيب، دعى إلى وليمة مع جماعة من الأصدقاء، وكان من بينهم شيخه أبو البركات ابن الحاج البلفيقى، الذى اعتذر عن الأكل بأنه صائم، قد بيته من الليل، وحينئذ حضرت ابن خاتمة هذه الأبيات :

دعونا الخطيبَ أبا البركات ... لأكل طعام الوزير الأجـــل
وقد ضمنا فى نداه جنانٌ ... به احتفل الحسنُ حتى كملْ
فأعرض عنا لعذر الصيامِ ... وما كل عـــذرٍ له مستقل
فإن الجنان محل الجـــزاء ... وليس الجنانُ محلَّ العملْ

وعندما فرغوا منَ الطعام أنشد الأبيات شيخَه، فقال له أبو البركات : « لو أنشدتنيها، وأنتم بعد لم تفرغوا منه، لأكلت معكم برا بهذه الأبيات، والحوالة فى ذلك على الله تعالى » .

وفى نهاية القسم المتعلق بترجمة حياته أورد لنا ابن الخطيب رسالتين : إحداهما توجه بها ابن خاتمة إلى ابن الخطيب نفسه والأخرى رد من هذا عليها .

وطبقاً لما يقوله ابن الخطيب نفسه، كتبها ابن خاتمة بمناسبة عزم ابن الخطيب على الخروج من الأندلس متوجهاً إلى الحج .

وهى رسالة طويلة متكلفة، طافحة بالاستعارات والتوريات، وفيها يحاول ابن خاتمة أن يثنى ابن الخطيب عن إصراره فى الانقباض عن الخدمة،

● الواقع ان الابيات لابن خاتمة نفسه، واذا لم يتضمنها الديوان الاصلى فهى موجودة في المصادر الأخرى، وجاءت الأبيات ضمن رسالة توجه بها ابن خاتمة الى لسان الدين ابن الخطيب، ومطلع الابيات :

اقول « وعـــين الدمـــع » نصب عيوننا ... ولاح لبستان الوزارة جانب

وهى مقطوعة في سبعة ابيات، انظر :

● نفح الطيب، ج ٦ ص ٣٦ — ٣٨، طبعة محيى الدين .
● الكتيبة الكامنة، ص ٢٤٤ طبعة احسان عباس .
● نيل الابتهاج، ص ٧٢ — ٧٣ .

(المترجم)

(٣٤) الاحاطة، ص ٢٦٠ — نفح الطيب، ج ٨ ص ١٤٨ — رائق النحلية، الورقة ٤ أ .

والتيه على السلطان والدولة » . ويبدو واضحاً فيما نلحظ هنا ، قلة غرام ابن خاتمة بالرحلات ، وسجل فى بعض المناسبات كراهيته للبعد عن وطنه و« مافارق ذوو الأحلام ، وأولو الأرحام ، مواطن استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم » .

ونذكر أنه حاول أن يصرف شيخه **أبا البركات** عن رحلة له إلى المشرق(٣٥) ، ولا نعرف عنه أنه غادر الأندلس أبداً ، وعندما ترك صديقه **ابن الخطيب** الأندلس إلى المغرب كتب إليه أن يعود إلى وطنه ، وبين هذا الأسلوب من البلاغة المتكلفة الغالية الثقيلة ، التى تملأ كل الرسالة ، تلمع بعض جمل معبرة ، يحاول بها أن يقنع صديقه :

« إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على العموم والخصوص ، ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، أو طب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ، فلديه يحل المشكل ، وإليه يُلجأ فى الأمر المفصل ... » .

وبعد عدة جمل شجعه فيها على العودة ، بنفس الأسلوب المتكلف أيضاً ، أثنى على الأندلس ، ومع أن ثناءه جاء موجزاً ، يمكن أن يضاف إلى النصوص التى تمثل « **قومية شعراء الأندلس** » ، يقول :

« ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ . ماتحت أديمها أشلاء أولياء وعبّاد ، وما فوقه مرابط جهاد ، ومعاقد ألوية سبيل الله ومضارب أوتاد ، ثم يبوىء ولده مبوأ أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيذ أنظاركم المسددة من رأى قائل ، وسعى طويل لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد » .

---

(٣٥) نفح الطيب ، جـ ٧ ص ٤٠٢ ، رائق التحلية ، الورقة ٦ ب .

ويبدو ابن الخطيب فى رده ، وقد خاب أمله فى العالم ، وأسلوبه فى رسالته يطابق الأسلوب الذى استخدمه ابن خاتمة تماماً ، وأستهلها بهذين البيتين من الشـــعر :

لُمْ فى الهوى العذرى أو لاتلُم فالعذل لا يدخل أسماعـــى
شأنك تعنينى وشأنى الهـــــوى كلُّ امرئٍ فى شأنه ساعى(٣٦)

أما فيما يتصل بدعوته كى يعود إلى الأندلس ، فلم يقتنع بها فيما يبدو ، يقول له :

« وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليمن طيره ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ، وعمران رباه ووهاده ، بأشلاء عبّاده وزهاده ، حتى لا يفضله أحد إلا الحرمين ، فحق برىٌّ من المين ، لكن للحرمين جنحت ، وفى جو الشوق إليهما سرحت » .

والمعلومات المتصلة بترجمته ، والتى توجد فى كتابه رائق التحلية فى فائق التورية محدودة ، وقليلة الأهمية ، ومع ذلك أوردها فيما يلى ، حسب مجيئها فى مخطوطتى الإسكوريال وباريس :

فى الورقة ٣ ب و ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، و ٩ من مخطوطة باريس خبر امرأة دخلت الحمام بدون مئزر ، فأمر القاضى **أبو البركات البلفيقى** بتثقيفها ، فكتب إليه **ابن خاتمة** شافعاً *.

---

٣٦ الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

* من طريف الامر اننى قرات الخبر ومعه الابيات التالية ، وهى عذبة ورقيقة ، على الصفحة الاولى من مخطوطة « ايراد اللآل من انشاد الضوال » وارشاد السـؤال » لابن خاتمة ، أثنـاء اختلافى الى خزانة القصر الملكى فى الربـاط ، صيف عـام ١٩٧٣ ، أعجبته الناسخ ، أو مالك المخطوطة لا ادرى ، وخشى نسيانها فسجلها ، والابيات هى :

ياقاضياً أصبح ذا سيرةٍ بكل عدلٍ فى الورى ساريه
سمحتُكَ فى جاريةٍ ثقفت ليستْ على حكم الهدى جاريه
واعجب لما جاء به وقتنا مؤتزر يشفع فى عاريه =

فى الورقة ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، ١٠ أ من مخطوطة باريس ، توجد أبيات من الشعر أشرنا إليها فيما سبق ، توجه بها إلى **أبى البركات البلفيقى** حين اعتذر عن الأكل معهم ، فى روضة لسان الدين بن الخطيب ، ويزيد **ابن خاتمة** هنا ، أنها كانت بمناسبة إعذار الأمراء ، وأن ثلاثة من الأشخاص تجمعوا هناك : القاضى أبو البركات البلفيقى ، وأبو جعفر بن عبد الحق المالقى ، وابن خاتمة نفسه . وربما كان لهذا الخبر صلة بما أورده لنا **ابن الخطيب** فى كتابه الإحاطة (٣٧) ، عندما يقول : « دخل غرناطة غير مامرة ، منها فى استدعاء شمال الخواص من أهل الأقطار الأندلسية ، عند إعذار الأمراء فى الدولة اليوسفية » ، أى أبناء السلطان أبى الحجاج يوسف ، فى شهر شعبان من عام ٧٥١ = أكتوبر ١٣٥٠ م .

فى الورقة ٤ أمن مخطوطة الإسكوريال ، ٩٠ ب من مخطوطة باريس ، يقول **ابن خاتمة** : أمضينا ليلة فى غرناطة ، فى دار الشريف النبيل القاضى ، وعاء الحكمة ، وخطيب العاصمة ، وقدوة الخاصة ، ابن القاسم محمد الحسنى (٣٨) مع أبى البركات البلفيقى ، والقاضى أبى إسحاق بن شعيب (٣٩) .

فى الورقة ٤ ب من مخطوطة الإسكوريال ، و ١١ أ من مخطوطة باريس ، خبر عن طلب **أبى القاسم بن رضوان** من **ابن خاتمة** ديوان أشعاره .

فى الورقة ٦ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١١أ من مخطوطة باريس ، قصيدة توجه بها إلى القائد أبى عبد الله بن شعيب ، حين كان عاملا على قصبة

والابيات ليست في الديوان الذى نشره د . رضوان الداية .
(المترجم)

(٣٧) جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٣٨) عن أبى القاسم محمد الحسنى ، أسناد ابن زمرك ، انظر : ازهار الرياض ، ص ٩ — ١٢ .

(٣٩) عن ابن شعيب ، انظر : ص ١١٠ ، الهامش رقم ١٣ .

ألمرية ، بمناسبة نزوله فى بيت الفقيه الوزير ، والأديب اللوذعى أبى عبد الله بن جُزى .

فى الورقة ٦ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١٢ ب من مخطوطة باريس ، أبيات من الشعر ، حاول فيها **ابن خاتمة** أن يثنى **أبا البركات البلفيقى** عن رحلة عزم عليها إلى المشرق ، وكان ذلك فى جمادى الثانية ٧٣٩ هـ = ١٣٣٨ م ، وقد غرقت السفينة التى خلفها أبو البركات دون رحلته ، ليلة إقلاعها من مرسى ألمرية .

فى الورقة ٧ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١٣ أ من مخطوطة باريس ، بيتان من الشعر ، تضمنا تورية ، يمكن أن تفهم على أنها إشارة إلى يوسف سلطان غرناطة .

أما الأخبار المتصلة بشهرة **ابن خاتمة** العريضة خارج الأندلس ، فلدينا منها رواية **ابن فضل الله العمرى** ، فى كتابه **مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار** (٤٠) وهو خبر نقلناه عن مقال للأستاذ **كولان** Colin ، بعنوان « بعض شعراء العرب فى الغرب خلال القرن الرابع عشر الميلادى » ، فى مجلة هيسبيريس ، ١٩٣١ ، ص ٢٤١ ، يقول : أنشد أبو عبد الله شهاب الدين ، أحمد بن فضل الله العقيلى الحبورى ، قصيدة **لابن خاتمة** فى **القاهرة** ، **على ابن فضل الله العمرى** ، عام ٧٤٠ هـ = ١٣٣٩ م ، وقال له إن الشاعر لمّا يزل حياً ، غير أن العمر تقدم به ، ومع ذلك ، يمكن القول أن سن ابن خاتمة فى هذا التاريخ لم تكن تقدمت كثيراً ، لأنه كما رأينا ، توفى عام ٧٧٠ هـ = ١٣٦٩ م ، فى السبعين من عمره تقريباً .

---

(٤٠) مخطوطة باريس ، المجلد ١٧ ، الورقة ٢١٠ أ .

مؤلفات ابن خاتمة

تميز أديب ألمرية الشهير بين معاصريه ، الذين احترموه وأعجبوا به ، وترك لنا مؤلفات هامة ، تنبئ بمعارف متعددة الجوانب ، وتومىء إلى مستواه الأدبى واللغوى والعلمى ، وسوف نعرض لهذه المؤلفات فيما يلى :

● **المؤلفات التاريخية :**

١ — **تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد**، ومحتوى هذا الكتاب يمتد إلى حقلى التاريخ والطب ، وفيه يدرس **ابن خاتمة** العدوى وأسبابها بعامة ومرض الطاعون الأسود الشهير، الذى اجتاح مدينة المرية عامى ٧٤٩ و٧٥٠هـ = ١٣٤٨و١٣٤٩ م بخاصة ، حيث تسبب فى موت أعداد مريعة من السكان . وفضلا عن قيمة الكتاب من الوجهة الطبية ، له أهمية بالغة فيما يتصل بالمعلومات التى يقدمها عن مسقط رأس المؤلف . ولدينا مخطوطتان ، واحدة فى مكتبة دير الإسكوريال ، ورقمها فى فهرس ديرنبورج ١٧٨٥ ؛ والثانية فى المكتبة الأمبراطورية فى برلين ، تحت رقم ٦٣٦٩ .

وقد قام الأستاذ المصرى **طه دنانة** بترجمته إلى اللغة الألمانية فى مجلة Arch. fur. Gesh. de Med. ، المجلد ٢٠ ، عام ١٩٢٦ ، ص ٢٧ — ٨١ ، وعن النص الألمانى قام الصيدلى خوسيه فرناندیث مرتينيث ، من مدينة ألمرية ، بترجمة الجانب الطبى منه ، فى مجلة « الحاضر الطبى Actualidad Medica » ، التى تصدر فى غرناطة العدد رقم ٤٠٣ ، الصفحات ٤٤٩ — ٥١٢ ، والعدد رقم ٤٠٤ ، الصفحات ٥٦٦ — ٥٨٨ ، عام ١٩٥٨ .

٢ — **مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية** . هو مؤلف مفقود لسوء الحظ ، وكان مصدراً تاريخياً هاماً ، اغتنمه كل من **ابن الخطيب** ،

وابن القاضى ، والمقرى ، الذى يقول عنه إنه : « مجلد ضخم ، تركته من جملة كتبى بالمغرب » ، والعثور عليه مهم للغاية ، فربما قدم لنا معلومات عما كانت عليه الحياة فى مدينة ألمرية فى الأعوام الأخيرة من الحكم الإسلامى .

● المؤلفات الأدبية :

١ — الديوان ، وترجمته الإسبانية بين يدى القارىء ، ومخطوطته فى الإسكوريال تحمل رقم ٣٨١ فى فهرسة ديرنبورج ، وله مخطوطة أخرى فى الرباط ، فى الخزانة العامة تحمل رقم ٢٦٩ ك .

٢ — كتاب رائق التحلية فى فائق التورية . وهو مجموع من الأشعار لابن خاتمة ، تلقاها عنه سماعاً تلميذ له يدعى ابن زرقالة ، وجمعها فى كتاب ، وتوجد له ثلاث مخطوطات : واحدة فى الإسكوريال ، تحمل رقم ٤١٩ فى فهرس ديرنبورج ، والثانية فى المكتبة الوطنيه فى باريس ، تحت رقم ٥٧٤٩ ، فى فهرس بلوشيه ، والثالثة فى الخزانة العامة فى الرباط ، تحمل رقم ١٨٢٦ ، فى فهرسها الذى صدر عام ١٩٥٨ . وقد درست هذه المجموعة فى مقال نشرته عام ١٩٦٢ ، الصفحات ٥٤٢ — ٥٥٧ . ونصها العربى أعددته كى ينشر كاملا فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد (٤١) .

٣ — الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعاذل . وهو رسالة صغيرة ، فى أسلوب مسجوع ، للتمييز بين أعداء العشاق : الرقيب والواشى والعاذل ،

---

(٤١) هذا الكتاب ليس مجموعة من القواعد عن استخدام التورية ، كما هو عليه الحال في كتاب الصفدى : فض الختام عن التورية والاستخدام ، وانما مجرد مجموعة من الاشعار التى تحتوى تورية . وهذا اللون من البلاغة أربى على غايته في هـذا العصر . وثمة مؤلف معاصر لابن خاتمة هو : ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم النميرى ، أبو القاسم ، من غرناطة ويعرف بابن الحاج ، وألف كتابا بعنوان : مثالث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين ، طبقا لابن الخطيب في كتابه الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ ، والمقرى في نفح الطيب ، جـ ٩ ص٢١٥ . ويذكر الزركلى في كتابه الاعـلام كتبا اخرى للنميرى ، وليس من بينها هـذا الكتاب ، جـ ١ ص ٣٢ .

ومخطوطة هذه الرسالة فى باريس ، تلى نص مخطوطة الكتاب رقم ٥٧٤٩ ، الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة ، وسبق أن نشرت هذه الرسالة ، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٨ ، عام ١٩٥٤ ، والصفحات ١ — ١٦ .

● **مؤلفات لغوية :**

ايراد اللآلى ، من إنشاد الضوال ، وإرشادالسؤال . وهو كتاب اختصر فيه الدراسات اللغوية التى قام بها قبله الزبيدى ، أبو بكر محمد الحسن ، وابن **مكى الصقلى** ، وشرحها محمد بن أحمد **بن هشام** السبتى ، ونظمها محمد بن هانئ اللخمى السبتى ، وقد طبعها وشرحها كولان فى مجلة هيسبيريس ، المجلد الثانى عشر ، ١٩٣١ ، ص ١ — ٣٢ ، ونشرها ثانية أخيراً الدكتور إبراهيم السمرائى فى بغداد ، فى كتابه : « نصوص ودراسات عربية وأفريقية »* .

ويذكر **أحمد بابا التمبكتى** ، فى كتابه **نيل الأبتهاج** كتاباً آخر لابن خاتمة فى النحو ، أعطانا اسمه ، وهو : **إلحاق العقل بالحس فى الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس** ، ولكننا لا نعرف عنه شيئاً .

● **مخطوطات الديوان :**

عندما بدأت عملى لأقدم رسالتى للدكتوراة ، لم يكن بين يدى غير مخطوطة وحيدة معروفة لديوان ابن خاتمة ، توجد فى مكتبة دير الإسكوريال ، وتحمل رقم ٣٨١ فى فهرس ديرنبورج ، ولم أكن أعرف يومها أنه توجد له مخطوطة ثانية فى أى مكان آخر . وخلال المهرجان الثقافى الإسبانى الإسلامى الذى عقد فى مدينة بلنسية ، فى ديسمبر من عام ١٩٦٥ ، أتيحت لى الفرصة أن أعرف

---

* الواقع أن ما نشره كولان ، وما اعاد نشره الدكتور ابراهيم السمرائى ، هو تلخيص كتاب ابن خاتمة ، قام به شخص مجهول ، أما كتاب ابن خاتمة نفسه فلما ينشر ، ويملك كاتب هذه السطور مخطوطتين مختلفتين للنص الاصلى ، يقوم بالمعارضة بينهما ، لتحقيق الكتاب ونشره .

(المترجم)

العالم المغربي السيد محمد بن شريفة، الذى تكرم فأنبأنى بأنه توجد فى الخزانة العامة بالرباط نسخة أخرى من ديوان ابن خاتمة ، لما تضم إلى فهارسها . وبفضل معاونته ، وأمين الخزانة العامة ، السيد — عبد الله الرقراقى ، استطعت أن أحصل على صورة « ميكرو فيلم » من هذه المخطوطة ، وأن أعارضها بمخطوطة الإسكوريال قبل أن أبدأ فى نشر الديوان .

فلننظر الآن إلى مميزات كل واحدة من المخطوطتين : مخطوطة الإسكوريال ذات قيمة لا تقدر ، لأنها فيما يصفها دير نبورج ، فى الجزء الأول من فهرسه ، ص ٢٥١ ، بخط الشاعر نفسه . والحق أن عنوان الكتاب ينبيء بشيء من هذا فهو : « من شعر كاتبه عبد الله أحمد بن على بن محمد بن خاتمة ، لطف الله به ». ولا يوجد اسم لناسخ فى أى مكان آخر من الديوان ، كما هو الحال فى معظم المخطوطات التى نسخها غير مؤلفيها ، وأخيراً فإن المؤلف يختم مجموعته الشعرية بهذه الكلمات :

« انتهى التقييد ، والحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، مولانا محمد المصطفى ، وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى يدى ناظمه عبد الله المستغفر لذنبه : أحمد بن على بن محمد بن خاتمة ، لطف الله تعالى به ووفقه ، وذلك بمدينة ألمرية ، حاطها الله تعالى ، بتاريخ أخريات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة » .

كل ما معنا إذن يشير إلى أن ابن خاتمة نفسه ، هو الذى سطر صفحات ديوانه ، الذى توجد مخطوطته فى مكتبة الإسكوريال .

ويقول دير نبورج فى الوصف الذى قدمه للديوان ، إننا بصدد كتاب يعود إلى أيام شبيبة ابن خاتمة ، لأن هذا ولد فى المرية عام ٧٢٤ هـ = ١٣٢٣ م ، وهى معلومة اعتمد فيها على جيانجوس فى ترجمته لنفح الطيب ، جـ١ ص ٣٥٩ . وسبق أن تحدثنا عن الخطأ الذى وقع فيه بعض الذين ترجموا للشاعر ، حين

خلطوا بين مولده ، وتاريخ أخيه محمد ، كما أشار إلى هذا ب . مرتينيث أنتونيا (٤٢) .

وتتكون مخطوطة الإسكوريال من ٦٠ ورقة ، وفى الصفحة ١٦ سطراً ، فى خط مغربى كُتِبَ فى عناية وجمال ، وفى حالة جيدة بعامة ، باستثناء الجانب الأعلى من الصفحات ، والسطران الأولان منها استهلكا فى العادة تماماً ، فى الجزء الداخلى منهما ، وكان من الضرورى إعادة بناء الكلمات والجمل فى كثير من الحالات . ويجب أن أشكر الباحث المصرى ، العالم الأستاذ الدكور عبد العزيز الأهوانى على مساعدته القيمة فى إعادة البناء هذه ، وفى تفسير بعض الكلمات ، خلال إقامتى فى الإسكوريال . وهذه المخطوطة مضبوطة بالشكل كلها تقريباً ، وعندما نسخها احتفظت بالشكل على نحو ما كتبه المؤلف نفسه ، ولا بد أن النص روجع بمحضره أيضاً ، فى مرات عديدة نجد على الهامش : بلغت القراءة والسماع .

ومن المهم أن نأخذ فى الحسبان طريقة التشديد التى تستخدم فى المخطوطة ، فإلى جانب حذف السكون من اللام فى أداة التعريف حين تسبق الحروف الشمسية ، والاستعاضة عنها بالتشديد ، يحافظ ابن خاتمة على إدغام النون حين تسبق حروف اللام ، والميم ، والواو ، والباء ، ويحدث الشىء نفسه فى الكلمات ذات التنوين . وهكذا نجد فى الموشحة الرابعة ، فى البيت الثانى ، من أغصان الدور الأول : « مرّاقى الزهر » ، وفى الموشحة الثانية ، فى الدور الخامس البيت الثانى من الأغصان نجد : « صب متّيم » ، وفى الموشحة الثانية ، الدور الرابع ، البيت الثانى من الأغصان نجد : « عوّدّه » بدل « عن وده » ، ونجد فى القسم الأول ، فى القصيدة الرابعة ، البيت الأول : « يامّيغيث » بدل « يامن يغيث » ، وغيرها . والشىء نفسه يحدث مع الأصوات اللثوية ،

---

(٤٢) ابن خاتمة المريى ، ورسالته عن الطاعون ، مجلة الدين والثقافة ، اكتوبر ١٩٦٨ ، ص ٦٨ — ٩٠ .

سواء خرجت من أول اللسان أو من بين الثنايا ، مثل مانجد فى الموشحة العاشرة ، فى البيت الثالث من المركز : « فَتَجلَّى » بدل « قد تجلى » .

ولمعرفة قواعد الكتابة ، وظاهرة الإدغام فى القرآن الكريم ، يمكن العودة إلى كتاب : « دراسة فى فقه اللغة العربية Traite de Philologie arabe لمؤلفه هـ. فايش ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٨٤—٨٥ و ١٣٩ وما بعدها . وأيضاً : « بحث فى الأصوات العربية Cours de Phonetique Arabe » لمؤلفه ج . كانتنو ، ونشر فى باريس عام ١٨٦٠ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

و مخطوطة الديوان التى فى مكتبة الإسكوريال فى مجلد وحدها ، وتجليدها فخيم .

أمّا مخطوطة الرباط ، ولم أرمنها غير « الميكروفلم » ومصورها ، فتحمل رقم ٢٦٩ ك ، فهرس الخزانة العامة ، طبقاً لما أعلمنى به السيد الرقراق ، وأجهل ما إذا كانت فى مجلد مستقل ، أو فى مجموع تكون جانباً منه ، مع مخطوطات أخرى ، ولو أن ترقيم الصفحات يشير إلى أنها فى مجلد مشترك مع غيرها ، لأن صفحاتها تحمل الأرقام من ٢٨٦ إلى ٣٩٧ ، ويبدو أن الصفحة الأخيرة من « الميكروفيلم » آخر صفحة فى المجلد أيضاً ، لأن عليها تقييدات تضم أبياتاً لشعراء مختلفين ، بينها للمتنبى . وتنتهى بمصطلحات أعجمية للأشهر ، وكما ترى لاصلة لذلك كله بديوان ابن خاتمة .

وكتابة المخطوطة واضحة ، وخطها مغربى ، وينقصها الضبط بالشكل ، وكل صفحة تجىء وسط إطار من خطين .

والمخطوطة فى حالة جيدة ، وأتاح لى هذا أن أقوم بمعارضة مستأنية بينها وبين النسخة الأخرى ، فتبينت الكلمات المطموسة ، وصححت الكلمات الخاطئة ،

وتأكدت من القراءة المشكوك فيها، مما يوجد فى مخطوطة الإسكوريال التى عرضت لها من قبل . ومخطوطة الرباط شبيهة تماماً بمخطوطة الإسكوريال ، وتبدو صورة دقيقة من النسخة التى كتبها المؤلف . والاختلافات التى وقعت عليها سجلتها فى هامش النص العربى ، وتعود فى أحايين كثيرة إلى أن الناسخ لم يستطع أن يتبين كلمة مطموسة أو غير واضحة فى مخطوطة الإسكوريال . وتوجد هذه الاختلافات فى بعض الموشحات بخاصة ربما لأن الناسخ لم يستطع أن يفهمها جيداً . ومخطوطة الرباط على الرغم من أنها فى حالة جيدة ، حفظاً ووضوحاً ، أدنى مرتبة من مخطوطة الإسكوريال ، لأنها لا تعدو أن تكون نسخة من الأصل، ومن ثم تتناثر فيها بعض الأخطاء.

والفقرة التى ينتهى بها الديوان ليست كاملة ، تنقصها الجملة التى يقول فيها ابن خاتمة إنه جمع ديوانه فى ألمرية عام ٧٣٨هـ ، ونقرأ بدلا منها : « رسوله وآله وصحبه وسلم . يوم الأحد ، الخامس والعشرين من ربيع النبوى ، سنة أربع وتسعين وتسعمئة . (٩٩٤هـ=١٥٨٦م) .

ولا تحتوى اسم الناسخ ، والمخطوطة — كما نرى — ليست إلا نسخة نقلت بعد قرنين ونصف من الزمان على جمع الديوان . ولا نعرف من خطها ، ولا أين ، ولا لمن ، ومهما يكن فإن العناية التى رافقتها توحى إلى الشهرة التى نالها شاعرنا بين مسلمى شمال إفريقيا ، وأنها استمرت قرناً كاملا من الزمان بعد انتهاء « حرب الاسترداد » فى شبه الجزيرة ، والاختلاف بين المخطوطتين أشرت إليه فى نسختى العربية من الديوان .

● **محتوى الديوان :**

يبدأ الديوان بمقدمة مسجوعة ، نموذج فى أسلوبها ، وفيها يزهو المؤلف بمعارفه اللغوية ، وثراء معجمه ، ورقة استعاراته ، وتكوّن جملة غير متناسقة فى ألوانها

البلاغية ، ومن الصعب ترجمتها إلى لغة أخرى . ولكثرة صورها ، وعذوبتها الحقيقية لا يمكن أن تتجاوز اللغة التى كتبت فيها .

ريشير المؤلف فى المقدمة إلى أنه جمع الديوان استجابة لرجاء صديق طلب منه هذا ، ولم يذكر لنا اسم هذا الصديق ، وفكرت فى البدء أن الأمر يمكن أن يكون مركباً من تلك المراكب التى يستخدمها أشباه الشعراء أحياناً ، ولكنى وجدت خبراً فى كتاب آخر للمؤلف نفسه ، توجد مخطوطته فى الإسكوريال(٤٣) أيضاً ، أكد لى أن هذا الديوان كان هدية حقاً إلى صديق لابن خاتمة ، ونستطيع الآن تحديد هويته . والخبر فى هذه المخطوطة يقول(٤٤) :

« كتب إلىّ الفقيه الأجل ، رئيس الكتاب ، صاحب القلم الأعلى بالديوان السلطانى بالمغرب ، أبو القاسم ، عبد الله بن رضوان (٤٥) ، وهو يومئذ بألمرية ، يستدعى ديوان نظمى ، ووجه بها مع رجل ممن تقلد حفاظة الديوان الاشتغالى(٤٦) ، موريا بذلك(٤٧) .

ديوانُ نظمكَ مَطلبى فامنحْ به ... لأرى انتظامَ الحسنِ بالإحسانِ
ولقد علمتُ بأن قصدَكَ حفظهُ ... فبعثت نحوك حافظَ الـــديوانِ

---

(٤٣) فهرس ديرنبورج ، رقم ٤١٩ ، الورقة ٤ ب وهو كتاب رائق التحلية .

(٤٤) أى مخطوطة « كتاب رائق التحلية فى نائق التورية » ، وعن هذه المخطوطة انظر مقالى الذى نشر فى « دراسات مستشرقية مهداة الى ليفى بروفنسال » ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٥٤٣ — ٥٥٧ .

(٤٥) أبو القاسم عبد الله بن رضوان ، المتوفى ٧٨٠ هـ ، أديب مالقى ممتاز ، وفقيه مريخر ، درس فى تونس ، وتولى وظائف هامة فى بلاط بنى مرين ، أنظر :

● المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ٢١٤ — ٢١٩ — وأزهار الرياض ، جـ ٢ ص ٣٤٥ ، و جـ ٣ ص ١٩٦ .

● ابن خلدون ، التعريف برحلته ، طبع ابن تاويت ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٢ — ٥٥ والمقدمة ، ترجمة دى سلان الى الفرنسية ، باريس ١٨٦٢ ، جـ ١ ص ٢٦ .

(٤٦) الديوان الاشتغالى كما يقول دوزى فى ملحقه للمعاجم العربية ، شىء يشبه الادارة المـــالية .

(٤٧) التورية فى كلمة حافظ ، يشير الى المهمة التى يتولاها الرسول من جانب ، والى معنى من يحفظ من جانب آخر ، والأبيات من بحر الكامل .

وعلى هذه الأبيات رد ابن خاتمة بأبيات مثلها ، أرسلها صحبة الديوان الذى سلمه إلى الرسول :

يامهدياً ريحانتين أنالتا بصرى وسمعى بهجةً ولسانى
مستدعيا نظمى وما نظمى لما ببدى ولو أذنى بديعُ زمانى
إن كنتَ قد أهديتَها روْحاً فلا عجبٌ جنانٌ جاء من رضوان(٤٨)

ومن الواضح أن الصديق الذى توجه إليه ابن خاتمة بقصائده كان كاتباً لأبى عنان ، وهو مالقى الأصل ، ويتردد على الأندلس بكثرة ، وترتبطه صداقة وطيدة بكبار الأدباء فى بلاط غرناطة .

وأخيراً ، بعد أن عبر عن خوفه مما قد يكون فى ديوانه من نقص ، أشار إلى الأقسام التى كسره عليها ، وهى :

القسم الأول : فى المدح والثناء ، وما ينتظم فى سلكه من التنبيه على مواقع الجود والنعماء .

القسم الثانى : فى النسيب والغزل .

القسم الثالث : فى الملح والفكاهات .

القسم الرابع : فى الوصايا والحكم .

وأخيراً يقول : « وختمتها بنبذة من التوشيح ، الذى له فى مضمار الأدب المجالُ الفسيح » .

ويتكون الديوان فى جملته من ١٩٣ قطعة ، بين قصيدة ومقطوعة ، تضم ١٠٣٥ بيتاً من الشعر .

---

(٤٨) الثورية في آخر كلمة « رضوان » ، لأنها تشير الى اسم الرسول ، واسم الملاك حارس الجنة .

● ترجمت الباحثة الفاضلة الدكتورة سوليداد « بديع زماني » الى اللغة الاسبانية بمعنى « فريد عصره » extraordinario en mi tiempo وهى ترجمة صحيحة ودقيقة ، لكنها تحتاج أيضا الى اشارة ، لان ابن خاتمة يورى بها الى « بديع الزمان » ، الكاتب والشاعر العباسى الشهير .

(المترجم)

يتكون القسم الأول منها وهو فى « المدح والثناء » من تسع قصائد، وموضوعاتها دينية كلها ، ولا تجد بينها أية قصيدة تتصل بالسياسة ، أو مدح الملوك والعظماء على أيامه ، وإنما جاءت كلها فى شكر الله ومدح الرسول . وإذا كان مدح الأقوياء، والإشادة بمآثرهم ، كان لها نصيب من الصدق أم لا ، أمراً شائعاً بين شعراء العرب فى المشرق والمغرب ، فإن ابن خاتمة أراد قاصداً فيما يبدو أن يفات من هذا الواجب . وليس هذا وقفاً على الديوان فحسب ، وإنما فى قصائده المتناثرة بين المصادر الأخرى غير الديوان ، لا نجد أيضاً شيئاً يتصل بهذا الغرض . كيف استطاع ابن خاتمة أن يظل على هامش التيار العام ، على حين ألقت بنفسها بين طوفانه كبرى شخصيات العصر ، وكانت تربطه صلة صداقة وطيدة بالوزير **لسان الدين بن الخطيب؟** . لا نعرف لذلك جواباً دقيقاً ، ومع غيبة الأخبار عن تدخله فى السياسة ، وابتعاده عن المناصب العامة ، على الرغم من المكانة التى كان يتمتع بها ، تجعلنا نرجح أنه تجاوز المطامح التى من هذا اللون ، وآثر أن يظل بمنأى عن كل ما هو بعيد عن الحياة الثقافية .

هذه القصائد التسع كلها مطولة ، وموضوعاتها دينية ، على نحو ما أشرنا ، وفيها يتجه الشاعر بشكره إلى الله ، ويمدح الرسول وصحابته ، ويكثر من الإشارة إلى الحج والأماكن المقدسة ، ونعلى الرسول . وهى موضوعات مطروقة كلها ، وترد عند كثير من الشعراء فى مختلف العصور ، وبين معاصريه أيضاً نجد مثل هذه القصائد ، نجدها فى أشعار **ابن الخطيب** (٤٩) ، **وابن زمرك**(٥٠) ، **وأبى البركات البلفيقى**(٥١) ، وغيرهم .

---

(٤٩) نفح الطيب ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ .

(٥٠) المصدر السابق نفسه ، ج ١٠ ، ص ٤ — ١٤٠ .

(٥١) الاحاطة ، طبعة عنان ، ج ٢ ، ص ١١٠ ، القاهرة . وعن أشعار أبى البركات ، انظر مقالى : أبو البركات البلفيقى ، في مجلة الاندلس ، المجلد ٢٨ ، ص ٤١٦ .

وكثير من أبيات هذه القصائد غامض ، وتعسر ترجمته ، بسبب لغته الصوفية والمجازية ، ومع أن كثيرين من معاصريه ، على نحو ما قلنا ، نظموا أشعاراً من هذا الطراز ، فقد لحظت أن شيخه أبا البركات البلفيقي كان أكثرهم تأثيراً فيه . ومن المحتمل جداً أن نجد عند كليهما ، الشيخ والطالب ، صدى أفكار الصوفي المربي الشهير **ابن العريف** ، ولعلهما ، كليهما ، كانا من أتباعه ، يسلكان طريقه ، ويتبعان مذهبه ، وقد حفظت لنا المصادر عنه قصائد مطولة في شكر الله ومدح نبيه (٥٢) . ونجد في بعض قصائد **ابن خاتمة** الصوفية أبياتاً عذبة الجمال ، وأحياناً ذات شبه كبير بقصائد الشاعر الصوفي المصري **ابن الفارض** (٥٣) ، وعاش في القرن السابق على **ابن خاتمة** . وإلى جانب هذه الأبيات نجد أخرى **أقل حظاً** ، **وأحياناً** تصبح قراءتها عبثاً ثقيلا باهظاً .

وتأمل الطبيعة يحمل **ابن خاتمة** على أن يتغنى بنعم الله التي تتجلى من خلالها ، الطير تشدو على عرائس الأشجار ، والأوراق والأغصان تتجه إلى السماء ، وأشجار النيلوفر قبضت كفها خائفة ، وبسط السوسان يمناه راجياً ، والزنابق تفتحت شواهد على نعم الله ، والبطاح كلها أبدع رسمها ناطقة بفضله (٥٤) ، وكل ما نلقى على البسيطة يدعونا إلى التأمل ، يقول في إحدى قصائده(٥٥) :

فما خطباءُ العرْبِ أفصحُ واعظاً ... من الطير يشدو لوفهمت المعانيا
ولا صفحاتُ الهندِ أردع زاجراً ... من البرق يبدو لوعلمت النواهيا
ولا لُطفُ الاحسان أحسن موقعاً ... من النوْرِ يذكو لوعرفت الأياديا

وأحياناً يبكي ذلا وخوفاً وإشفاقاً وندماً ، على مساوىء وخطايا زلت بها قدمه ؛ كما فعل **أبن الفارض** من قبل ، ويشبه اللطف الإلهي بالخمر :

---

(٥٢) نفح الطيب ، ج ١٠ ، ص ٣٤٤ . وعن ابن العريف ، انظر : آسين بلاثيوس ، ابن العريف وكتابه محاسن المجالس ، النص العربي وتعليق عليه ، باريس ١٩٣٣ .
(٥٣) عن ابن الفارض انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الرابع ، ص ٧٨٦ .
(٥٤) القسم الأول ، القصائد رقم ١ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .
(٥٥) القسم الأول ، القصيدة رقم ١ .

مشمولةً نسجتها للشمال يدٌ وألطفتها أكف اللطف فى القدمِ
فالها غيرَ روحِ الروحِ من قدحٍ ولاها غيرُ سرٍّ السر من فَدَمِ
بينا تُرى فى أكف الشاربين طلا إذ تستحيل شعاعاً فى خدودهمِ (٥٦)

وقد فاض قلبه بحب الله ، فلا مكان لغيره فيه :

هيهاتَ عندى جوىً لو فض بادرةً منه على الشهبِ مادارت به الشهبُ (٥٧)

وتبقى معنا دائماً ، ونحن نعرض للشعر العربى ، مشكلة الصدق ، مهما كان الموضوع الذى تدور القصيدة حوله ، وهى مشكلة لما تحل ، ولكن تدينّ ابن خاتمة فى حالتنا هذه ، يبدو أنه يصدر عن قلب عاشق حقاً . ويمكن أن نقول مرة أخرى إنه الجو الصوفى التقليدى الذى لف مدينة ألمرية ، قد تسرب إلى شعرائها فى كل العصور .

وآخر قصيدتين فى هذا القسم من التسميط ، والأولى منهما ، أو الثامنة فى ترتيب القسم إن شئت ، هى تخميس لقصيدة صوفى مشرقى شهير ، هو الشيخ شهاب الدين أبى عبد الله بن الخيمى ، المتوفى ٦٨٥هـ=١٢٨٦ م ، وكان معاصراً لابن الفارض ، وأورد قصيدته هذه ابن القاضى فى كتابه درة الحجال (٥٨) ، ولها تاريخ مثير أشار إليه ابن القاضى ، نقلا عن ابن رُشَيْد ، ذلك أن ابن الخيمى ، كتب هذه الأبيات فى شبيبته ، ثم تركها دون أن يتمها ، وقف عند البيت :

يابارقاً بأعالى الرقمتين بدا لقد حكيتَ ولكن فاتك السبب

ثم وضعها فى شق من جدار البيت الذى كان يسكنه ، ونسيها بعد ذلك ، ومضى الزمن ، ثم جاء إلى الدار نفسها وسكنها أديب آخر : أبو المعالى نجم الدين بن إسرائيل محمد بن سوار الدمشقى ، المتوفى عام ٦٧٧هـ=١٢٧٨م ، فأخذها

---

(٥٦) القسم الأول ، القصيدة رقم ٣ .
(٥٧) القسم الأول ، القصيدة السابعة .
(٥٨) المجلد الأول ، ص ١٥٤ ، الترجمة رقم ٤٦٦ .

وادعاها لنفسه ، وأنشدها جماعة من الرفاق كانوا يلتقون مع الصوفى الشهير ابن الفارض ، وبينهم ابن الخيمى ، الذى تمسك بأن القصيدة له عندما سمعها ، ولحل المشكلة سألهما ابن الفارض أن يكملاها ، فلم يستطع ذلك إلا ابن الخيمى ، أكملها وجمع كل شطر من بيت إلى رصيفه فى دقة ، ومنذ تلك اللحظة أصبح **نجم الدين بن إسرائيل الدمشقى** موضع السخرية ، أما شطر البيت : « لقد حكيت ولكن . . . » فقد دخل التاريخ مثلا .

ونجد هذه القصيدة أيضاً فى المخطوطة رقم ٢٦٨ ، الورقة ١٣ ، فى مكتبة مدريد الوطنية ، غير أنها تظهر فى الفهرس بطريقة خاطئة ، وليس ثمة شك فى أن اسم الشاعر المشرق فُهِمَ خطأ ، واستنتج **جيين روبلس** Guillén Robles الذى وضع الفهرس أنه عمر الخيام ، وظهر التعريف بها فى الفهرس على النحو التالى : « قصيدة معادلات لعمر بن إبراهيم الخيامى (رياضى وفلكى ومؤلف بعض الألواح الفلكية للتنجيم) ، وهذه القصيدة خمسها **أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصارى** » . وكما نرى ليست هناك قصيدة معادلات ، ولا صلة لها بالرياضيات ، وإنما هو مجرد تخميس قام به ابن خاتمة لتلك القصيدة المشهورة . والاختلاف بين النص الوارد فى هذه المخطوطة والوارد فى الديوان أشرنا إليه فى مكانه من التحقيق ، ومثلها الخلاف فى النص بين ما ورد فى الديوان وفى درة الحجال . والقصيدة الأخيرة فى هذا القسم مسمطة أيضاً ، ولكن ابن خاتمة لم يشر إلى اسم صاحبها ، ولم أستطع أنا الاهتداء إليه

وكلتا قصيدتى ابن خاتمة ، فيما أرى ، متكلفة ، وتغلب عليهما الصناعة .

أما القسم الثانى وأعطاه عنواناً : فى **النسيب والغزل** ، فيضم تسعة وأربعين قصيدة ورتبها على حسب طولها ، الأطول فالأقل طولا ، وبالرغم من العنوان الذى أعطاه لها ، يمكن القول أنها جاءت فى **الوصف** أكثر مما هى فى **الغزل** ، وأنها يمكن أن تؤلف جانباً من الغرض الذى اصطلح على تسميته بالوصف ، وفى رأيى فإن هذه

القسم يجمع بين أقل القصائدجودة عند شاعرنا . وعبثاً نفتش خلالها عن آثار حب حقيقي أو تعبير عن ألم صادق، وإنما نجد ترديداً مكروراً ، حتى التخمة ، للتعبيرات المطروقة ، كما لو أن الشاعر وهو ينظمها قد وقف جهده على ملء خانات مكلف بها .

وأحياناً يبرق اسم امرأة بين آونة وأخرى ، مثل : **بنت المنصف** ، أم العزيز ، **مهجة**(٥٩) ، غير أنها فيما يبدو لى مجرد أسماء اختارها ليتلاعب بها فى ذكاء ، أكثر منها أسماء لشخصيات وجدت فعلا .

والوصف ، كما قلت ، هو ما يهتم به الشاعر أكثر من غيره ، سائراً على خطى شعراء بغداد « المحدثين » ، ويبدو أنه يهتم بالشكل أكثر مما يعنى بالمضمون .

وفى استعاراته وتشبيهاته يسير أحياناً على غير الطريقة التى سار عليها الشعراء قبله ، فاذا كانت القاعدة العامة فى التشبيه أن تشبه الأدنى بالأعلى ، أو المجهول بالمعروف ، فنقول ثغر كالأقحوانة ، وأسنان كالماس ، وقد كغصن البان ، **فابن خاتمة** فى بعض استعاراته يعكس الأمر . فيجعل من المستعار له حقيقة ، ومن الحقيقة مستعاراً :

فاعتنقتُ القضيب منها قواما وارتشفت الرحيق منها رُضاباً(٦٠)

وفى هذا القسم نجد أيضاً إشارات إلى الحب العذرى ، يقول :

كم قتيلٍ من عذرة وطعينٍ بين بيض الطلى وسُمْر العيونِ
فى حروبٍ بها الكُماةُ ظبـاءُ الـخدْرِ والشهداءُ أسدُ العرين(٦١)

والقصيدة الأخيرة فى هذا القسم تسميط ، ولكن ابن خاتمة لا يشير إلى الشاعر الأصلى الذى نظم القصيدة ، واكتفى بأن يقول إنها « قطعة لأحد المشارقة » ، دون أن يسميه .

---

(٥٩) القصائد رقم ٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .
(٦٠) القصيدة رقم ٢٩ من القسم الثانى .
(٦١) القصيدة رقم ٢٦ ، وعن الحب العذرى انظر أيضا ، فى قسم الموشحات ، الارقام ٧ ، ١٨ .

والقسم الثالث، وأعطاه عنواناً : **الملح والفكاهات** . هو والموشحات أهم ما فى الديوان . ولهذا القسم فيما أرى أهمية خاصة ، لأنه يعكس لنا فى وضوح الذوق الأدبى فى الأندلس فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ونلمس منه الاهتمام البالغ ، والإصرار العنيد ، على استخدام الصور البلاغية المعقدة ، وفى هذا الميدان وجد **ابن خاتمة** مجاله عريضاً واسعاً ، وأخذ بحظه منه حراً طليقاً ، وأظهر قدرته وتمكنه الكامل من فنه ، على نحو لم يبلغه الشعراء الآخرون ، كما سنرى فيما بعد .

يبدأ القسم بقصيدة عن « **محاسن الشتاء وماله من الفضل على كل فصل** »، ويدعوه « سلطان الفصول » ، وهى ذات قيمة كبيرة فى مجال الوصف ، وإحدى قصائد قليلة تمدح هذا الفصل ، وجوه المتقلب البارد المطير .

والقصيدة الثانية ، وهى طويلة إلى حد ما ، إذ تبلغ ٢٧ بيتاً ، تصف حفلة أقيمت فى الأيام الأخيرة من شهر شعبان . ويدعوها « **شعبانية** »، والأخبار التى وجدتها فيما يتعلق بمثل هذه الحفلات التى يطلق عليها اسم « شعبانة » . وفيما يبدو كانت تتم فى أبهة فخيمة وابتهاج شعبى : يقول أ . ج . ونسينك فى المقال الذى كتبه عن شهر شعبان فى دائرة المعارف الإسلامية ، إن المسلمين يوقرون هذا الشهر من بين شهور العام ، ويدعونه « المعظم » ، وتقام فيه الصلوات ، وتعقد المجالس الدينية ، والحلقات والأذكار ، وبخاصة فى يومى ١٤ و ١٥ منه . فى بعض بلاد العالم العربى يبدو أنها تشمل آخره أيضاً ، احتفالا بتوديع حياة البهجة ، والإقبال على طيبات الطعام قبل البدء فى صوم رمضان . وفيما يتصل بالأخبار المتعلقة بهذه الحفلات فى الأندلس وشمال إفريقيا ، لدينا ما قدمه لنا ليفى بروفنسال(٦٢) متصلا بتخفيف العقوبات ، والحفلات الدينية التى كانت تتم قبل أن يجىء رمضان بخمسة عشر يوماً ، ولكنها لا تشير إلى الأيام الأخيرة من

---

(٦٢) تاريخ إسبانيا الاسلامية ، جـ ٣ ، ص ١٦٠ .

شعبان . والشيء نفسه حدث مع ابن عبدون(٦٣) ، فهو لا يعرض لنا فى رسالته **القضاء والحسبة** كيف كان المسلمون فى إسبانيا يودعون الأيام الأخيرة من شهر شعبان . ويصف برنو Brunot فى كتابه : « **البحر فى التقاليد وفى الصناعة عند السكان الأصليين فى الرباط وسلا**» باريس ١٩٢١ ، ص ٩٨–٩٩ ، الحفلات التى تعقد فى الرباط فى آخر يوم من شعبان ، بأنها نوع من المهرجانات قبل الدخول فى توبة الصيام ، وفى هذه الحفلات التى يشترك فيها كل الناس ، يجتمعون فى الحدائق ، وينشدون الأشعار ، ويعزفون الموسيقا ، ويعبرون النهر ، ويتنزهون على ضفافه . وأيضاً يأكلون حتى التخمة . ولكنه فى هذه الحالة يسير إلى يوم بعينه ، وهو آخر الشهر .

ويقول عنه هنرى مرسييه فى كتابه « العربى تصورا L'Arabe par l'image » ، الرباط ١٩٥٥ ، ص ١٨١–١٨٩ ، إنه يوم يحتفى به كثيراً فى المغرب ، وكان فى الأصل يوماً يحتفى به الطلاب مع شيوخهم ، وشخصيات أخرى محدودة العدد ، فيجتمعون فى روضة خاصة ، حيث يستمتعون بكل المباهج خلال أيام لم يحدد عددها ، قبل أن يبدأ شهر رمضان .

ولكن **ابن خاتمة** يبدأ قصيدته التى قدم لها بأنها : « فى وصف شعبانية سنية ، فى روض مريع ، أتى عليها عنفوان الربيع » ، بيت يقول فيه : «أربعة أيام من الدهر حسبه بها من جملة العمر» ، مما يوحى ، فيما يبدو ، على الأقل فى العصر الذى عاش فيه ، بأن هذا الحفل كان يستمر أربعة أيام . وبالتأكيد توجد فى المصادر العربية إشارات إلى هذه الأيام . ومن المفيد أن نجمع هذه النصوص . لقد وجدت أنا إشارة إلى ذلك فى كتاب **المقتضب من كتاب تحفة القادم** لابن الأبار ، واختصره أبو إسحاق ، محمد بن إبراهيم **البلفيقى** (٦٤) .

---

(٦٣) ليفى بروفنسال وغرسيه غومث : اشبيلية فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى . رسالة ابن عبدون ، مدريد ١٩٤٨ ، ص ٧٤ ، الهامش رقم ٢٧ .

(٦٤) طبعة ابراهيم الابيارى ، القاهرة ١٩٥٧ .

في الترجمة التي خص بها **أبا طاهر ، إسماعيل بن مسعود الخشني الحيافي**(٦٥) ، يحكي هذا أنه « حضر مع جماعة من أصحابه ، فيهم أبو عبد الله **بن زرقون** ، متنزهاً في بعض الأعوام ، وفي عقب شعبان منه « فلما تملّئوا بالطعام ، قال أبو الطاهر لابن زرقون : أجز يا أبا عبد الله . فقال :

حمدتُ لشعبانَ المبارك شبعةً ... تُسهل عندي الجوعَ في رمضانِ
كما حمد الصبُّ المتيم زورةً ... تحمّل فيها الهجر طولَ زمانِ

فقال أبو الطاهر :

دعوْها بشعبانيةٍ ولو أنهم ... دعوها بشعبانيةٍ لشفانى(٦٦)

وفي قصائد الديوان الباقية نجد كثيراً من وصف الزهور ، وفيها يسير **ابن خاتمة** على هدى من مدرسة شرقي الأندلس ، التي عبّد سبيلها كل من **ابن خفاجة** و**ابن الزقاق**. ويشير دائماً إلى تبادل بواكير الزهور بينه وبين أصدقائه الذين يرسلونها إليه دائماً رفقة أبيات من الشعر(٦٧) .

ومن أجمل أشعار هذا اللون ، المقطوعة الحادية عشرة ، وأرسلها إلى صديق له مع باكورة ورد أحمر ، وفيها يقول :

حيّتك بكرٌ من بنات ... الروضِ أعجلها ابتكارُ
طلعتْ لغير أوانها ... فلذاكَ ماصفرَ النهار
جاءتكَ منبثةً بإقْبال الربيع لها ابتدار
محفوفةً بالآسِ منه على محاسنها خِمارُ
فكأنما ما بينهُ ... خدٌ أحاط به عِذار

---

(٦٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ . وانظر أيضا : نفح الطيب ، ج ٦ ص ٥٦ ، ج ٥ ص ٢٩٢ .

(٦٦) الأبيات من بحر الطويل ، وجاء لطف البيت من اللعب بالألفاظ بين شعبان وشبعان

(٦٧) هكذا يمكن أن نجد ذلك في المقطع أرقام : ٣ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

وثمة عدد من المقطوعات وقفها على « الخيرىّ » ، وهى زهرة تعبق بأريجها ليلا ، بسبب حيائها ، فيغشى حقول الكتان كالبحر ، والحدائق ، والحفلات ، وقمر رمضان .

ولكن أوضح مافى هذا القسم ، وفى النصف الثانى منه إن شئت الدقة ، أن الرغبة فى استعراض معارفه البلاغية ، فيما يبدو ، تسيطر عليه باستمرار ، من الاستعارات الغريبة ، والجمل المسجوعة داخلياً ، واستخدام التصريح والتجنيس . وكل ذلك ، وهو ذكى ومعقد فى فن كتابة الشعر ، كان غاية شاعرنا فيما يبدو .

وبين أشعار هذا القسم تتميز المقطوعة رقم ٢٣ ، ويقول فى مقدمته لها : « وفيه من اللف والنشر ماينذر وقوع مثله فى الشعر » . نحن فى الحقيقة معه بصدد صناعة بلاغية تستخدم فى نظم الأشعار المتسلسلة و المترابطة ، وقد درسها الأستاذ دامسو ألونسو Dámaso Alonso ، وتوجد لها أمثلة وفيرة فى كل الآداب الأوربية ، وبخاصة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . وقد ضمّن دامسو ألونسو مقاله البالغ الأهمية أمثلة عديدة لهذه الصورة البلاغية ، مأخوذة من الشعر العربى ، وقد ترجمها وعلق عليها إميليو غرسية غومث (٦٨) . وهو مايضع أمامنا مشكلة العلاقة بين أقدم القصائد التى تعرف « اللف والنشر » فى الأدب السنسكريتى ، وعند اللاتين فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وعند الإيطاليين والفرنسيين والإنجليز والإسبانيين ، فى القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . واحتمال أن ليس ثمة صلة بين الأدب السنسكريتى والأدب اللاتينى جعل الأستاذ دامسو ألونسو يرى أن القصيدة العربية نفسها هى التى قامت بدور الناقل أو الوسيط . والمشكلة لمّا تحل ، ولكن الأمثلة

---

(٦٨) دامسو ألونسو فصل فى أسلوب العصر الذهبى : اللف والنشر فى الشعر ، مدريد ١٩٤٤ ، ص ١٥٢ — ١٥٦ ، وعن هذا الموضوع الهام ودرسه بتوسع أنظر كتابه : ستة مرائيء فى التعبير الادبى الاسبانى ، مدريد ، طبعة جريدوس ، ١٩٦٣ .

التى قدمها لنا غرسية غومث دليل واضح على استخدام « **اللف والنشر** »فى الشعر العربى على امتداد كل العصور . وهذه الأمثلة تضم أشعاراً لابن حزم القرطبى ، وابن حاجب النعمان . وابن خفاجة وحمدة بنت زياد ، وصالح بن شريف الرندى . ويمكن أن نضيف إليهم ابن خاتمة . ولو أنه لم يتجاوز الوحدتين فى لفه ونشره ، ولكنها تضم عدداً من التشبيهات غير معروف نسبياً . وإذا كانت التشبيهات لا تتجاوز ستة أو سبعة عادة ، فلدينا هنا حالة نادرة ، على ما يصرح به الشاعر نفسه ، فنحن نلتقى عنده بستة عشر ركناً على الأقل ، يقول :

وخاطرةٍ كالظبى . فى خطوها بُعدُ ... تكاد أعاليها من الليـــن تنقدُّ
تمنيتها فى حضرةٍ وسْـــط روضةٍ ... يَمُّ علينا من خمائلها الندُّ
فصدّتْ وقالت : مالطبعك قد جفا ... وأىّ رياض تبتغى بعد ماأبدو
وفردوسُها والقضبُ والعرفُ والندى ... وأورا قُها والوُرقُ والكثبُ والرندُ
وحضرتُها والراح والنقلُ والغنا ... ونرجسُها والزهرُ والآسُ والورد
ثيابى وأعطافى ونشرى ونعمتى ... وقرطبى وحُلّيى والروادف والقد
ووجهى وريقى والنهودُ ومنطقى ... ولحظى وثغرى والغدائر والخد
إذا لحتُ لاح الحسنُ طرّاً وإن أغبْ ... فلا شجنٌ يخفى ولا حسَنٌ يبدو

فنحن إذن بصدد جملة كبيرة من التشبيهات ، جاءت على طريقة **اللف والنشر** فى مجموعتين ، كل واحدة منهما فى ستة عشر ركناً ، الأولى تمثل المشبه به ، والثانية تمثل المشبه ، وجاءت محكمة التركيب فى بنائها .

وقد أورد لنا **ابن الخطيب** ، فى مؤلفه **الكتيبة الكامنة**(٦٩) ، بعض أبيات الشاعر **إبراهيم القيجاطى** : المتوفى عام ٧٣٠هـ = ١٣٢٩ ، وكان معاصراً **لابن خاتمة** ، تضمنت من صور التشبيه على طريقة اللف والنشر المرتب ثمانية تشبيهات هى :

---

(٦٩) طبعة دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٤ .

جبينٌ وشعرٌ ووجه وقدٌ وخدٌ وطرفٌ وريقٌ وثغرُ
صباحٌ وليلٌ وبدرٌ وغصن وورد وسحر وخمر ودر

ونمضى مع هذا القسم الثالث ، فنجد فى المقطوعات رقم ٢٤ و ٢٥ و٢٦ ، أمثلة أخرى مثيرة ، لا تدخل فى باب اللاّ والنشر ، وإنما هى من الصور البديعية التى تعرف بالتجنيس (٧٠) ، وهو : « بيان المعانى بأنواع من الكلام يجمعها أصل واحد من اللغة » وهو قسمان : جناس مزاوجة ، وجناس مناسبة ، وهذا الأخير ألوان كثيرة ، اختار ابن خاتمة من بينها تجنيس التصريع ، هو : أن يقع الجناس بين الكلمة الأخيرة من المصراع الأول والكلمة الأخيرة من المصراع الثانى فى البيت ، فيعطيه جمالاً أكثر من الموسيقا والإيقاع .

والمقطوعة رقم ٢٦ ذات أهمية كبرى ، فيما أرى . إنها تتضمن لونا من الجناس ، ولكن ابن خاتمة قدم لها بقوله : « وقال والتزم فى قوافيه نوعاً من التجنيس » ، يقوم على توافق الحرفين الأخيرين من الكلمة قبل الأخيرة من البيت ، مع الحرفين الأخيرين فى آخر كلمة فيه ، أو إن شئت مع حرف القافية ، والحرف الذى يسبقه . مثلا : الوصال صالى ، للجمال مالى ، خيال بالى . والتشابه واضح بين مانسميه فى الإسبانية « الأشعار ذات الصدى Versos Comeco » و بين هذا اللون من الجناس ، وقد أشرت إلى هذا فى مقالى الذى ظهر فى مجلة الأندلس . المجلد ٢٣ ، ١٩٦٨ ، ص ٩٥ — ١٢٢ ، بعنوان : « ألوان طريفة من الشعر الأندلسى » .

وقد أشار إميليو غرسية غومث فى المجلد الذى ظهر تكريماً لدامسو ألونسو (٧١) ، إلى وجود « القافية ذات الصدى » ، أو التجنيس

---

(٧٠) ثمة دراسة هامة قام بها ب . دياث ماتشو عن التجنيس ، في مجلة « سفراد » ، المجلد ٨ ، ص ٢٣٩ — ٣٢١ والمجلد ٩ ص ٢٧٠ .

(٧١) دراسات لغوية ، المجلد الثانى ، مدريد ١٩٦١ ، ص ٧٣ — ٧٦

الذى أشار إليه ابن خاتمة ، فى الشعر العربى ، وكان بصدد موشحة للشاعر الوادى آشى أبى الحسن بن نزار الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، وأعتقد أن أبيات ابن خاتمة هذه تجىء مثالا أزيد على استخدام مثل هذا التجنيس بين الشعراء العرب . ما العلاقة بين الشعر القشتالى الذى تجىء « قافيته ذات صدى » ، وهو كثير فى أدبنا ، واستخدمها شعراء كثيرون فى كل العصور ، مثل : خوان دى لا إنثينا ، ولوبى دى رويدا ، وبلتساردى القصر ، ولوبى دى بيجا ، وسور خوانة إنيس دى لاكروث ، وروبين داريو ، وغيرهم ، وهذا اللون العر. من الجناس ؟ .

من الواضح أن هذه الصناعة ، وهى متكلفة ، وتنقصها العفوية ، تنافى طبيعتنا ، فيما يبدو ، ولكن إذا تأملناها من وجهة نظر أخرى يمكن أن نجد فيها جوانب من الجمال لا يتطرق إليها الشك ، لا يجب أن نبحث عنها فى المضمون ، ولا أن نفكر فى البلاغة ، وإنما يكفى أن نقرأها باللغة العربية فحسب ، وأن ننشدها ، حينئذ نجد هذا الجمال فى اللغة ، وفى رنة الصوت وفى الإيقاع ، وشبيه بهذا مايحدث فى كثير من أشعار روبين داريو .

كل قصائد ، أو مقطوعات ، القسم الثالث تقدم فى مجموعها كثيراً من

● خوان دى لا انثينا (١٤٦٩ — ١٥٢٩ م) : شاعر وكاتب مسرحى ، وموسيقى ماهر ، يعتبر أب المسرح الاسبانى ، وتدور مسرحياته بعامة حول موضوعات دينية وريفية .

● لوبى دى رويدا (١٥٠٠ — ١٥٦٥ م) : ولد ومات فى اشبيليه ، وعمل ممثلا ومؤلفا ومدير فرقة ، ولا تزال مسرحيته « سكة الزيتون » تتمتع بشعبية حتى اليوم .

● بلتسار دى القصر (١٥٣٠ — ١٦٠٦ م) : شاعر رقيق من اشبيليه ، واشتهر بديوانه « عشاء ساخر » .

◎ لوبى دى بيجا (١٥٦٢ — ١٦٣٥) : من كبار شعراء المسرح الاسبانى ، بدأ حياته مغامرا ، وانتهى به الأمر راهبا ، وعاش حياة متواضعة ، وكتب مئات المسرحيات .

● سور خوانه (١٦٥١ — ١٦٩٥ م) : راهبة مكسيكية ، عالية الشعر ، حتى أنها استحقت لقب « ربة الشعر العاشرة » .

● روبين داريو (١٨٦٧ — ١٩١٦) : شاعر وناقد من نيكاراجوا ، ابتدع الوانا من النغم الجرىء ، وكان على رأس مذهب « الحداثة » ، وترك تأثيرا كبيرا فى الأدب المعاصر . (المترجم)

الطرائف والمفاجآت، فالمقطوعة رقم ٢٧ تجمع من الحلى البلاغية بين « نوع من التجنيس ومعنى من التورية » ، وفيها دليل أزيد، وهو الخلط بين نطق السين ونطق الصاد فى عربية أهل غرناطة .

أما المقطوعة التاسعة والعشرون ، فتقدم تركيباً بالغ الطرافة والإثارة ، فنحن معها بإزاء مقطوعة تتألف من ثلاثة أبيات، وبعد كل بيت تسع كلمات متشابهان القافية عمودياً. ومتساويات الإيقاع ، وتصلح كل منها أن تكون قافية للمقطوعة، فالقافية الأصلية فى النص هى الراء ، ولكنها يمكن أن تكون العين ، دون أن يضطرب البيت أو القطعة، معنى أو قافية أو وزنا ، مع الكلمات الأولى من السطور التى تلى الأبيات مثلا ، وهى : الأبدع ، تمتع ، تطلع . أو الحاء مع الكلمات التوالى لهذه ، وهى : الأوضح ، تسفح ، تلمح ، عشر قوافٍ مختلفة الروى .

ثم نلتقى فى هذا القسم بموضوعات ظهور العذار ، وهو يتردد كثيراً فى شعر كل العصور ، وعند كل الشعراء تقريباً ، وعن غلمان ليسوا فوق مستوى الشبهات ، ولا ينقصه تخيل الصورة المحبوبة فى الحلم ، والوداع والهجر ، والعيون المراض موضع المدح أيضاً .

والمقطوعات من ٦١ إلى ٦٧ تصف طريقة طريفة فى الكتابة على الورق عن طريق تفريغ الأحرف بالقطع ، ولمعرفة المزيد عن هذه الطريقة يمكن العودة إلى تعليق لى نشرته فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٤ ، عام ١٩٤٩ ، وإلى تعليقات أخرى تليه فى المجلدات : ١٥ و ١٦ ، وكان الأول منهما من تحرير المجلة ، والثانى بقلم الأستاذ المصرى جمال محرز ، وفيها يرد كل مانعرف عن هذه الطريقة فى الكتابة ، وكانت تستخدم فى المشرق والمغرب على السواء ، خلال القرن الرابع عشر الميلادى ، وحتى فى إسبانيا المسيحية ، فى قصائد

شمطوب دى كريون (٧٢) ؛ ونضيف إلى تلك المعلومات خبراً جديداً عثرت عليه ، وهو قصيدة للشاعر البلنسى **محمد بن غالب الرصافى** ، المتوفى عام ١١٧٧ م ، وهى أقدم مالدينا عن شعراء إسبانيا الإسلامية ، وتوجد فى مخطوطة كتاب **ابن عسكر : التكميل والأتمام لكتابى التعريف والإعلام**، ص ٢٦ . (٧٣) .

وهذه الطريقة التى تتمثل فى تفريغ الأحرف، فلا تصبح غير تجويف على الورق ، يمكن أن تستخدم لغايات مختلفة ، فابن خاتمة يستعملها فى قصائد الغزل ، والكتابة تشبه المحبوب :

أجلْ عينيك فى وشيٍ تعاينْ كتاباً والهواءُ لهُ مدادُ
جكانىْ كاتبى فى حالتيه لنا جسمٌ وليس لنا فؤادُ

أما قصائد **شمطوب دى كريون** ، (الأمثال ، طبعة جونثالث يوبيرا ، الأبيات ٩١—١٠٠) ، فتجيء لغاية أخرى . إنها طبقاً لما يقوله المؤلف

---

(٧٢) انظر مجلة الاندلس ، المجلد ١٥ ، عام ١٩٥٠ ، ٤٩٨ — ٥٠٠ ، مقال : الرسائل المقصوصة والرسائل المحشية ، تعليق من التحرير . ومقال الأستاذ جمال محرز : مزيدا عن المرسائل المقصوصة ، في الاندلس ، المجلد ١٦ ، عام ١٩٥١ ، ٢١٩ — ٢٢٣ .

وفيما يتصل برسائل شمطوب دى كريون المقصوصة ، نقلا عن الأشعار من ٩١ الى ١٠٠ ، من كتاب الامثال الأخلاقية الذى أشار اليه الاستاذ س. د. شترن في تعريفه بطبعة جونثالث يوبيرا ، وظهر في مجلة فقه اللغة الرومانية ، انظر مقالا لشترن نفسه بعنوان : قصيدتان عبريتان .

في مجلة سفراد ، المجلد العاشر ، عام ١٩٥٠ ، ص ٤٩٨ — ٤٩٩

ومن قريب نشر الأستاذ الدكتور دياث استيبان كتاب : « القلم والمقص » من تأليف سام توب في مجلة جامعة مدريد ، المجلد ١٨ ، العدد رقم ٦٩ ، الصفحات ٦١ — ١٠٢ ، وهو مقال هام للغاية ، ويضم معلومات وافرة عن طريقة الكتابة بالقص هذه .

ايضا أخبرنى الأستاذ يهودا نينى ريهوفور بأنه يعكف على دراسة قصائد سام طوب التى كتبت بهذه الطريقة ، وعن هذه الموضوعات انظر ايضا تعليق لى في مجلة الأندلس ، المجلد ٣٣، عام ١٩٦٨ ، ص ٤٧١ — ٤٧٣ ، عن : الكتابة بالقص في بعض اشعار الرصافي ، ومقال عن اوتو كورك في المجلد ٣٨ ، عام ١٩٧٣ ، ص ٢٤٣

(٧٣) عن هذه التراجم المختارة لعلماء مالقة الكبار ، انظر مقال خواكين بالبيه ، في مجلة الأندلس ، المجلد ٣١ ، عام ١٩٦٦ ، ص ٢٤٣ — ٢٦٥

نفسه ، كُتبتْ على هذا النحو « لأنه لا يجب أن ينفق فيها مداداً » احتقاراً لمن أتوجّه إليه ، ولكن الأسلوب واحد ، ليس ثمة شك ، كتابة طريفة ، وزخرفة كتابية ، تخضع للعبة الكلمات وأدق التراكيب البلاغية . وفى القرن الرابع عشر الميلادى كتب أيضاً الخطاط المشرقى **جواد بن سليمان بن غالب اللخمى** بطريقة قطع الحروف قصيدة **لامية العجم للطغرائى** الشهيرة ، وهى فى تسعة وخمسين بيتاً .

●

والمقطوعات الثلاث الأخيرة من هذا القسم جاءت ألغازاً ، وهو غرض من الشعر كان يستخدمه شعراء المشرق والمغرب على السواء ، فى كل العصور ، ويصعب علىّ فهمه ، ووقفت بجهدى عند حد نسخه ، فهو ألغاز تقوم على تكوينات عددية ، وعلى الحروف ، وحلها الآن يبعث على الحيرة .

●

أما **القسم الرابع** ، وهو فى **الوصايا والحكم** ، فيضم اثنتين وأربعين مقطوعة ، كلها كذلك ، على نحو ما هو جار فى مثل هذا اللون من شعر الحكمة ، وتوجد له أمثال عديدة بين شعراء إسبانيا الإسلامية فى القرن الرابع عشر الميلادى .

وليس ثمة شك فى أن ابن خاتمة كان تحت تأثير اثنين من شيوخه : **ابن ليون** ، و**أبى البركات البلفيقى** ، والأول منهما ، وتحدثنا عنه فيما سبق ، ترك عدداً من المؤلفات فى هذا الضرب من شعر الحكمة ، أورد لنا المقرى شيئاً منها فى كتابه **نفح الطيب** . والتشابه بين الكثير من أشعاره وما عند ابن خاتمة واضح ، ونأخذ لذلك مثلا ، يقول ابن خاتمة فى إحدى مقطوعاته :

أنعمْ على مَن تشا ... فأنت حتماً أميرُهْ
واحتجْ لمن شئت يوماً ... فما سواك أسيرُهْ
واستغنِ بالله عمّنْ ... تشاءُ أنت نظيره
فالمرء عبدُ هواهُ ... يضيرُهُ أو يُجيره

ويقول ابن ليون(٧٤) :

مَن تفضلتَ عليه أنتَ لا شكَّ أميرُهْ
ومَن احتجتَ إليه أنتَ بالرغم أسيرُهْ
ومن استغنيتَ عنهُ أنت فى الدنيا نظيرُهْ

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن مقطوعات كثيرة ، يتشابهان فيها فكرة ، وحتى فى التعبير أيضاً .

وأفكار بعض هذه النصائح والتأملات تتناقض ، كما يمكن أن نرى فى المقطوعات رقم ٣١ و ٣٤ و ٣٦ ، ومن ثم فنحن لا نعرف ما إذا كنا بصدد مجرد أشياء مطروقة ، وتتكرر عادة فحسب ، بعيدة عن مشاعره الحقة ، أم أننا أمام رغبة مقصودة ، للتعبير عن قناعاته .

فى حالة معينة ، يشير ابن خاتمة فى القصائد التى ذكرناها إلى الرحلة ، ونلتقى به فى القسم الأول من الديوان يعبر عن رغبة قوية فى رؤية الأماكن المقدسة وزيارة قبر النبى ، ولا نعرف ما إذا كان صادقاً أم متخيلا ، لأن الذين ترجموا له لا يذكرون أنه أدى فريضة الحج ، ولم يخرج حتى من الأندلس فى أية لحظة ، وحركته لم تتجاوز غرناطة وألمرية وما حولهما من قرى صغيرة . ولم يكن عزوفاً عن الحركة فحسب ، وإنما دفع شيخه وصديقه الحميم أبا البركات البلفيقى . لكى يقعد عن رحلة كان قد اعتزم أن يقوم بها إلى شمال أفريقيا ، مردداً بعض أبيات له من الشعر (٧٥) .

ولنقف قليلا مع هذا التناقض فى الأفكار ، يقول ابن خاتمة فى المقطوعة رقم ٣٤ :

جُلْ فى بلادِ الله نحوِ العلا ولتجْتنبْ أهلاً وأوطانـــا

(٧٤) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ٥٨ — ١١٤
(٧٥) نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٤٠٢

فبيدقُ الشـــطرنج من فوره يعودُ بالتجـــوال فرزانا

وفى المقطوعة رقم ٣٧ يقول :

مثواكَ عزُّكَ فاحذر أن تفارقَهُ فعــزةٌ واغترابٌ قلما اتفقا
أما ترى الشعرَ فوق الرأس مُحترماً فإن يزلْ عنه أضحى فى التراب لقى

ولا نجد فى هذا القسم كثيراً من الأفكار الأصيلة ، ومن الصعب أن نلمح بينها شيئاً ذاتياً بحق ، وربما فى المقطوعة الواحدة والعشرين ، عندما ينصح باجتناب الأقوياء، يمكن أن نربط بين هذه الأبيات وبين حياته، وجرت دائماً على هامش الطموحات السياسية ، ولو أنها فى الوقت نفسه موضوع طالما طرقه الكثيرون من الشعراء ، يقول :

خفِ السلاطينَ واحذرْ أن تُلابسهمْ مادام أمرهُمْ فى الملكِ مضطربا
إن الملوكَ بحارٌ فى خلائقهم ومن سما البحرَ فى أهواله عَطِبا

●

وأخيراً ، يأتى الشاعر فى نهاية الديوان بقسم أوقفه على الموشحات ، وجعلها خاتمة له ، وهى — فيما أرى — أفضل أشعار ابن خاتمة ، لموسيقاها الرائعة ، وعفويتها وطلاقتها ، ويضم ثمانى عشرة موشحة .

وإيثار شاعرنا لهذا الجنس من النظم واضح ، ومن ثم نجده فى فقرة أوردها المقرى فى كتابه أزهار الرياض ، المجلد الثانى ، ص ٢٥٢ وما بعدها ، نقلا عن « كتاب مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية » ، عندما عرض لترجمة ابن عبادة القزاز ، الشاعر والوشاح الشهير ، والذى عاش فى بلاط المعتصم بن صمادح أمير ألمرية. وهذه الفقرة بالغة الأهمية ، واتكأ عليها كل الذين يهتمون بدراسة الموشحات . وإذا رجعنا إلى نصى ابن بسام وابن سعيد المغربى ظهر لنا أن ثمة شخصين ينسب إليهما ابتداع فن الموشحات : محمد

بن محمود ، ومقدم بن معافى ، وكلاهما من قبرة ، وكلاهما ينعت بأنه ضرير (٧٦) .

ويفخر ابن خاتمة بأن مواطنيه الأندلسيين ابتدعوا هذا النمط الشعرى الجديد . ولا يخفى إعجابه به .

وبرهان آخر على تفضيله فن الموشحات نجده فى هذه المجموعة منها . ويضمها القسم الذى جاء به فى آخر ديوانه . ولأن الخرجة أفضل ما فى الموشحة ، وتجىء فى آخر مكان منها ، وهى من الموشح « ملحه وسكره ومسكه وعنبره » ، فكذلك تمثل الموشحات من الديوان حين توضع فى نهايته ، محتفظاً للقارىء بمفاجأة مدهشة ، فريدة ورائعة .

لن نحاول هنا شرح ما الموشحة ، ولن نتعمق فى المشاكل المتصلة ببنائها ، لأن أستاذى العزيز إميليو غرسية غومث درسها بأدق وأوضح ما يكون ، وإنما سأقف بجهدى عند دراسة الموشحات التى جاءت فى الديوان ، وسأصنفها تبعاً لخواصها المميزة لها ، وموضوعاتها وخرجاتها .

يقول ابن خاتمة فى المقدمة التى عرض فيها لأقسام الديوان : « وقد قسمتها أربعة أقسام ، قصد التنشيط والإجمام : القسم الأول فى المدح والثناء ، والقسم الثانى فى النسيب والغزل ، والقسم الثالث فى الملح والفكاهات ، والقسم الرابع فى الوصايا والحكم . وختمتها بنبذة من التوشيح الذى له فى مضمار الأدب المجال الفسيح » .

يبلغ عدد موشحات الديوان ثمانى عشرة ، وكلها جاءت فى خمسة أغصان ، أو أدوار إذا شئت ، للموشحة الواحدة ، وجاءت من بينها الموشحة الرابعة

---

(٧٦) أنظر : عبد العزيز الاهوانى ، كتاب المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد الاندلسى ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٣ ، عام ١٩٤٨ ، ص ١٩ — ٣٣ . وكذلك س . م . شترن : الخرجة الاسبانية فى الموشحة الاسبانية العبرية ، فى مجلة الاندلس ، المجلد ١٣ ، عام ١٩٤٨ ، ص ٢٩٩ — ٣٤٦ .

عشرة ، والسابعة عشرة بلا مطلع ، أو ما يطلق عليه فى اصطلاح النقاد موشح أقرع .

وأغلبها جاء على غير عروض البحور التقليدية المعروفة ، وقليل منها ، وبتحفظ فى بعضها ، يمكن أن يقال إنها جاءت فيها ، وهى الموشحات رقم ٦ و ٧ و ١١ و ١٤ و ١٦ . فالموشحة السادسة جاءت فى بحر الخفيف ، ولكن التفعيلات تتفاوت من بيت لآخر ، وهو مالا يمكن أن يحدث فى الشعر العمودى . والموشحة السابعة جاءت أغصانها فى بحر المجتث ، ولكن القفل والخرجة من الصعب ردهما إلى بحر . وجاءت كل من الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، فى مجزوء البسيط ، أما الرابعة عشرة فوزنها بالغ الغرابة ، لأن أغصانها ثلاثية ، ومن بحر الطويل ، أما الأقفال والخرجة فجاءا على وزنين مختلفين ، أربع مرات . والموشحة السادسة عشرة يمكن أن تكون من بحر المجتث فيما يتصل بالأغصان ، ولكنى لست على يقين من الأمر كذلك فيما يتصل بالأقفال والخرجة . ولقد أشرت إلى قافية كل واحدة منها وإلى البحر الذى أعتقد حقاً أنها جاءت فيه . وطبقاً لنظرية **إميليو غرسية غومث** ليس بينها أية واحدة يمكن أن تكون من بحر الكامل ، أو الوافر ، مما يعنى احتمال الزيادة فى المقاطع .

ولا تتناول الموشحات من الأغراض إلا الغزل والوصف فحسب ، فليس فيها مدح ، لا دينى ولا دنيوى ، ولا هجاء . وأسلوبها خفيف ، وموسيقى ، وذو وقع جميل على السمع ، وفيما يبدو وجد ناظمها مجاله واسعاً عريضاً ، فمضى مع موهبته إلى غايتها .

ونلحظ أن الانتقال من **الغصن** الأخير إلى الخرجة يتم فجاءة فى بعض الأحيان ، ويجىء جافاً ، وفى بعضها الآخر لا نكاد نحسه ، على نحو ما فى الموشحات رقم ٢ و ٦ و ٨ و ٩ و ١٢ و ١٧ .

ويجىء **الخرجة** فى معظم هذه الموشحات عامية اللغة ، ومن ثم ينقصها

الإعراب ، وتستخدم عدداً من تعبيرات اللغة الشعبية ، وأشرنا إليها ، ولا نجد بين خرجاتها ما جاء فى اللغة الرومانثية ، كما كان شائعاً فى موشحات هذا العصر ، ولو أننا نجد لهذه القاعدة استثناء ، كما فى موشحات ابن لبون ، المتوفى عام ١٣٤٩ م ، وجاء بها إميليو غرسية غومث فى كتابه : « الخرجات الرومانثية للسلسلة العربية فى إطارها » (٧٧) .

ثمة خرجة واحدة فحسب لا أرى معناها واضحاً ، مما جعلنى أشك فى أنها تحوى بين مفرداتها لفظاً رومانثيا ، ولو أن الأمر لا يتجاوز ، حتى هذه اللحظة ، مجرد الفرض ، أعنى الموشحة الثالثة ، ونص خرجتها :

ثوبكَ احرزْ من الحبَـــر فقـــد مـــلانى
قال لى : خليني نفتصل فى بلـد رانى

وأعترف بأنى لست على ثقة من أن ترجمتى لها دقيقة ، أولا لأن كلمة « حبر » ، وأعتقد أنها تعنى هنا « مداد » ، إذا أخذنا فى الحسبان أبيات الأغصان التى سبقتها ، والتى تقول :

وغـــزالٍ ماأجمـــلهْ فى تحـــلّيهِ
أخـــذ الطرسَ فصـّلَـــهْ ووشـــى فيـــهِ

ومع ذلك ، فالمعاجم العربية تضبط الكلمة « حِبْر » ، وهو ما يستحيل هنا ، لأن القافية الأولى فى كل الأقفال جاءت راء تسبقها فتحة * ، والشك الذى تولد عندى فى هذه الخرجة ، أجمله فيما يلى :

١ ــ ضبط كلمة حِبَر بدل حِبْر .

٢ ــ تعبير « فقد ملانى » ، وترجمته : « إذن ما أجمله ! » .

---

(٧٧) مدريد ، جمعية الدراسات والنشر ، عام ١٩٦١ ، رقم ٢٠ ب ، ص ١٩٧

(*) حذفت هنا فقرة ، لأنها مجرد ترجمة لأبيات القصن التى سبقت الى اللغة الاسبانية . (المترجم)

وضبط الكلمات فى المخطوطة لا يدع مجالا للشك ، ولكنى لا أجد فى المعاجم الثلاثى ملأ مزيدا بهمزة ، والذى يمكن مع التسهيل أن يفقد الهمزة الأخيرة منه ، وبخاصة فى اللهجة العامية ، وفكرت أيضاً فى أن تكون إملاء ولكن هذا المعنى لا يبدو لى معقولا هنا ، هل يمكن أن تكون من الأصل نفسه ، بمعنى « جعله يستمتع » ، ومن ثم يصبح معناها تمتع ، أو شىء شبيه بهذا ؟ . إن معنى الخرجة فيما يبدو لى يلح على شىء كهذا .

٣ — **نَفْتَصَل**، وجاء ضبطه هكذا، بدل « نَفْتَصِل» ، ولم أجد أيضاً حلا مرضياً للفعل « فصل » ، حين يجىء مزيداً بالهمزة والنون ، ولأن المعاجم تقدمه لنا مزيداً بالهمزة والتاء فحسب ، ولأن الصيغتين تتشابهان فى كثير من الأحيان فى المعنى ، فقد ترجمتها « منفصلين » .

٤ — لفظ « **بَلَدَرانى** »، وفكرت بدءاً فى احتمال أن تكون مركبة من كلمتين : بَلَدَ ورانى ، ولم أجد فى هذا حلا مرضياً. « **ورانى** » يمكن أن تكون فعلا لحقته ياء المتكلم ، بمعنى أكون ، فى اللغة البربرية (٧٨) ، ولو أن استعماله أكثر شيوعاً أمام المضارع . والاحتمال الأخير ، وارتضيته ، ولست مقتنعة به تماماً كما قلت ، أنها كلمة رومانثية ، ويمكن أن تقرأ هكذا « بلندران Balandràn » ، وطبقاً لمعجم مجمع اللغة الملكى فإن لفظ « بلندران » تعود أصوله إلى اللغة الألمانية القديمة ، ويطلق على « لباس سابغ وعريض ، مع معطف قصير على الكتفين ، ويستخدمه رجال الكنيسة عادة » ويتحدث دوكانج Ducange فى كتابه : « معجم لاتينية العصور الوسطى » عن استخدامه فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فيقول :

« فيما يتصل ببعض أنواع ملابسنا من البلندراس ، أو البلندران، المقررة فى نظام سان بندكتو ، فى مقاطعة نربونة ، عام ١٢٢٦ م ، من المؤلم أن

---

(٧٨) برسنييه ، دراسة تطبيقية ونظرية في اللغة العربية ، الجزائر — باريس ١٩١٤ ، ص ٣١ .

يستخدمها الجمهور ، وبخاصة ما كان منها أصفر اللون ، وقد أدان المجمع المسكونى لعام ١٢٥٤ م استخدام الجمهور لها ، وحرم ارتداء البلندران ، دون أية رقابة ، فى تلك المقاطعة ، كملابس علمانية ، وليس كملابس دينية » .

فالكلمة ، فيما يبدو ، كانت جارية الاستعمال فى اللاتينية الواطية ، وكانت تعنى نوعاً من « المعاطف » لا يستخدمه رجال الدين فحسب ، وإنما يستخدمه عامة الناس أيضاً ، كعباءة تغطى ملابسهم وتحميهم .. وبهذا المعنى يمكن أن نفهمها ، وأن نترجمها ، ويصبح معنا فى هذه الحالة كلمة رومانثية ، هى الوحيدة : فيما يبدو ، التى جاءت من هذه اللغة فى خرجات موشحات الديوان .

وخرجتا الموشحتان رقم ٥ و ١١ طريفتان . وقد درسهما إميليو غرسية غومث فى كتاب « دراسات مهداة إلى مينينديث بيدال » . المجلد الثانى ، ص ٣٩٧ — ٤٠٨ ، وهما دليل على وجود تلك الأغنيات الشعبية . سواء أكانت فى اللغة الرومانثية أم لا ، والتى بنى عليها الشعراء الموشحة ، ويبدو ذلك واضحاً فى هاتين الخرجتين أكثر من أى مكان آخر . والمطابقة ، أو الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة متكلف ، ونلحظ للوهلة الأولى ، أننا أمام جمع بين شيئين متناقضين .

والموشحة السادسة بالغة الأهمية للغاية ، فيما أرى ، إلى جانب روعة جمالها . وهنا يبدو لى أن ابن خاتمة مؤلف الموشحة والخرجة على السواء . فليس فيها جفوة ولا تكلف ، وحافظ على نفس الإيقاع ، ولها ميزة واضحة استرعت انتباهى منذ اللحظة الأولى . فالتفعيلة الأخيرة من كل قفل تتكرر فى بدء كل غصن يليها ، وتمثل حالة واضحة من « الشعر المترابط » ، ولا أعرف لها مثلا آخر شبيهاً بها فى الشعر العربى ، ولكنها تكثر فى الشعر القشتالى . وفى مقالى الذى نشرته فى مجلة الأندلس بعنوان : « بعض طرائف الشعر الأندلسى » (٧٩)

---

(٧٩) مجلة الاندلس ، المجلد ٣٣ ، ص ٩٥ — ١٢٢

أشرت إلى عدد من أمثلة « القصائد المترابطة » التى توجد فى « ديوان بابينة El Cancionero de Baena » ، والتقطت بعض الأشعار التى جاءت على هذا النمط فى حَمْد وشُكْر « سانتا مريا » ، فى ديوان كاهن هيتا * ، وكان معاصراً لابن خاتمة الذى يستخدم نفس طريقة الربط . هل ثمة علاقة بين الذوق العام والنمط الشعرى فى هذه المرحلة الأخيرة من الحكم الإسلامى ، بين المسلمين الإسبان وبين إسبانيا المسيحية ؟ من المحتمل جداً أن يكون الجواب : نعم .

والموشحة الثامنة يدور موضوعها عن الحب بين المسلمين والمسيحيين ، وجاءت فى أسلوب خفيف ، ينبض حيوية ، ويأخذ طريقه إلى الأذن بلا استئذان .

لقد أتاح التعايش بين المسلمين والمسيحيين فى كل العصور وجود هذا الشعر الغزلى ، وتحضرنا الآن أشعار **يوسف الرمادى** ، **وابن الحداد** ، والإشارات العديدة إلى التعايش مع المسيحيين وعاداتهم وحفلاتهم الدينية (٨٠) ، وهنا ، فى هذه الموشحة ، يشير **ابن خاتمة** إلى غلام نصرانى ، ويمكن أن نشير ، وقليلا ما نلتقى بمثل هذا الخبر الطريف ، إلى صعوبة فهم لغة الغلام المسيحى . أتراها مجرد خواطر أم أنها تعكس المناخ الحقيقى فى مملكة غرناطة ، وأنها لم تعرف ازدواجية اللغة ، ممثلة فى العربية والرومانثية ، وكانت شائعة فى الأندلس فى عصور سابقة ؟ . إنها موشحة ، كما قلت فيما سبق ، من أرق موشحات ابن خاتمة ، وأعذبها موسيقا ، وألطفها وقعاً على السمع ، والتمهيد فيها ، أو إن

(*) لمعرفة صلة كاهن هيتا باللغة العربية ، يمكن الرجوع الى كتابى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٣٤٢ وما بعدها . (المترجم)

(٨٠) هنرى بيريس ، الشعر الأندلسى في القرن الحادى عشر ، باريس ١٩٥٣ ، ص ٢٧٣ — ٢٨٧

● ترجمت الكتاب الى اللغة العربية ، وسينشر قريبا جدا (المترجم)

شتت الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة طبيعى تماماً ، تقول الخرجة :

صُبَىّ عشقتْ رومى وِشْ نحفظْ اللسانْ
السّاعَ مانشاكلْ عاشقْ بترجمانْ *

وقد ترجم إميليو غرسية غومث (٨١) الموشحة الحادية عشرة ، إلى جانب الموشحة الخامسة ، وخرجها كخرجة هذه ، أغنية شعبية جميلة ، أعطاها ابن خاتمة طابع الموشحة . ولكن التمهيد هنا ، أى الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة متكلف ، وغير طبيعى ، ويشى بأن تغييراً ما حدث عند الانتقال إلى الخرجة : لقد ظهر الرقيب ، وعند ما رأى وجه المحبوب محمراً ظنه فارق الحياة ، فعلا صوته صياحاً ، وشىء كهذا ليس مكانه المناسب هنا ، أو كما يعلق غرسية غومث : « جىء بها تشدها الخيول » ، ومع ذلك ، فمن الواضح أن الخرجة جميلة ، وذات إيقاع شعبى :

صَبَىْ جُرِحْ فالنَّخيلْ رشّ الحبقْ دَمْ
باللهْ باطيراً مليحْ قُلْ الحبرْ لأمْ

ونجد فى الموشحة الرابعة عشرة جانباً مختلفاً ، ولقد عُنيت بدراستها فى مقالى الذى أشرت إليه فيما سبق ، وعنوانه : « بعض طرائف الشعر الأندلسى » ، إنه موشح أقرع ، أى جاء بلا مركز ، وكل غصن فيه يتكون من ثلاثة أبيات ، جاءت فى بحر الطويل ، وجاء القفل فى بيتين ، الأول منهما فى بحر الطويل ، أما الثانى فليس إلا ملحقاً من أربع تفعيلات ، هى تكرار للتفعيلة الأخيرة من بحر الطويل . أما الخرجة ، على نحو ما نرى ، فلا تخضع لأى بحر من بحور الشعر ، وإذا طبقنا عليها نظام التفعيلات فسنجد أنفسنا أمام لون

---

(٨١) دراسات مهداة الى مينينديث بيدال ؛ المجلد ٢ ، ص ٣٩٧ — ٤٠٨ ، بعنوان : « امكانية احتمال طراز ثالث في الشعر الاندلسى » .

(*) رقم هذه الموشحة السابع في الديوان الذى نشره د. رضوان الداية ، والواقع أن الارقام المسلسلة بها تكرار عند الرقم ٦ المكرر ولذلك تختلف في كل الموشحات بعده (المترجم).

من الأغنيات الشعبية لاتستقيم لأى وزن بعينه ، فإذا فككنا بحر الطويل وهو يتكون من أربعة عشر مقطعاً ، فى كل شطر سبعة ، فسنجد أن منه ستة مقاطع فى الغصن ، ويتبعها اثنان . وبيت من أربعة مقاطع لكل قفل . ومن الواضح أن إيقاع وموسيقا الجانب الأكبر من الموشحات تختلف كثيراً عما هى عليه فى الشعر التقليدى ، ولو أنها ظاهراً يمكن أن تكون قد جاءت فى بحر معين .

والموشحات الأربعة الأخيرة فى هذه المجموعة ، ليست لها أى ميزة خاصة .

وبانتهاء الموشحات يختم ابن خاتمة ديوانه ، بعد أن حقق رغبة صديقه التى أبداها له ، طالباً منه « الإغضاء عند القضاء ، فقد انتظم بين قريحة متبددة ، واقتراحات متعددة ، وشبيبة بين الجد والهزل مترددة » .

وبعد شكر الله ، والصلاة على نبيه وآله وصحبه ، يسجل تاريخ تدوين الديوان ، وأنه تم بمدينة المرية ، بتاريخ أخريات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٧ م) ، على يدى ناظمه ، المستغفر لذنبه ، أحمد بن على بن محمد ابن خاتمة ، لطف الله به تعالى ووفقه .